وحى القلم للرافعى
أرفع صورة للأدب الإسلامى وقضاياه

دكتور
حامد ابراهيم الخطيب
أستاذ الأدب والنقد المساعد

يحسن بنا أن نتعرف على معنى الأدب ورسالته قبل أن نخوض فى غمار هذا الموضوع ، فنقول : ان « الأدب فى أبسط تعريف هو التعبير الجميل عن الخاطر النبيل ، والخاطر النبيل لن ينحط الى اسفافة مبتذل ، لأن لكل انسان مطامحه التى ترتفع به الى السمو »(١) ، وتنأى به عن مهاوى السقوط • والأدب فى كل أمة هو تجسيد لعواطفها ، وابراز لمشاعرها ، وهو المعبر الصادق عن تصوراتها وأحاسيسها ، وأخيلتها وطموحاتها •

ومصدر ذلك كله عقيدة راسخة لا تقبل الشك فيما تعتقد ، وثقافة رفيعة تروض الملكات بحيث تصبح أتم نشاطا واستعدادا للانجاز »(٢)، ثم عرف اجتماعى تعودته الأمة وتواضعت عليه حتى صار فاشيا فى سلوكها(٣) ، وجزءا أصيلا من حياتها •

وهذه الأمور مجتمعة لها فعلها وتأثيرها ، ولكنا نضع العقيدة فى موضع الرأس منها ، فهى التى يشتمل عليها الوجدان ، وتكون طريقة حياة ، وديدن سلوك •

انها حاجة النفس كما يحسها من أحاط بالدراسات المختلفة ، ومن فرغ من العلم والمراجعة ليرقب مكان العقيدة من قرارة ضميره ، اننا نعنى بالعقيدة ما يملأ النفس لا ما يملأ الرءوس أو يملأ الصفحات(٤).

ومن ثم فان العقيدة هى الركيزة الأولى للأدب ، وبدون مراء ، وعطاء هذه الركائز وتأثيرها قد تراكم عبر الأجيال المتعاقبة والأزمنة المتوالية ، وهذا التأثير فى ضمير الأمة — أى أمة — تنتج عنه آدابها فى أشكالها المختلفة ، شعرا ونثرا ، ثم ما يندرج تحت هذين الجنسين .

وليس بخاف أن كل منتج أدبى هو بالضرورة تعبير عن ذات الأديب وأشواقه(٥) .

ومبلغ علمنا أن هذا المعنى هو ما استقر عليه مصطلح الأدب فى عصرنا الحديث ، أما قبل ذلك فان معناه يختلف باختلاف عصوره(٦) . وأهم ما يعنينا هنا ما كان عليه الأدب فى صدر الاسلام ، ابان الرسالة ثم زمن الراشدين ، فقد كانت الكلمة العليا للكتاب والسنة ، وما يراه أولو الرأى المجتهدون .

أما القرآن الكريم فكل آيه فى القمة من الأدب المعجز بيانه وتوجيها ، وتأكيد سلوك ، وأما السنة المطهرة فهى من ذلك فى المرتبة التالية بلا خلاف .

ولقد كان الأدب قبل الاسلام مطلق الصراح ، مطلق الحرية ، يقول منشئه ما يعن له من قول ، وما يعرض له من موضوع أو فكرة أو قضية ، ولكن بلغة العرب الفصيحة الصريحة التى عرفوا بها وعرفته عنها .

وعلى الرغم من تلك الحرية الجاهلية ، وكما عرفها أهلها ، فاذا لم

نجـد واحـدا فيهم تغزل بمذكر ، لأن الطبيعة الفطرية للانسان السوى تنأى به عن الانحدار ، وقـد كذب أبو نواس حين قال :

لو ان مرقشـا حى تعلق قلبه ذكرا(٧)

ويمر هـذا الزمن ، ويشرق الكون بنور الاسلام وتظهر أمور لم تكن ، فترتبط الكلمة بالعقيـدة ، وتمحض لنصرة الحق ومعالجة قضايا الدين ، ومن هـذا المنطلق كان أدب الاسلام ، وكان نقـده وسـمات نقاده ، وتلك هى البذور الأولى والجذور للأدب الاسلامى الذى نريده متصديا لتشعبات الحيـاة .

وتأسيسا على ذلك فان الأدب الاسلامى ليس بالوليـد خداجا ، أو أنه آت من طريق غير مشروع ، وانما هو أدب قديم قدم الكتـاب والسنة ، وقد تمتد به الى الرسالات الأولى ، فان كل رسول لا يخرج أمره ورسالته عن قول الله ـ تعالى ـ « ان الدين عند الله الاسلام »(٨)، وقوله ـ ﷺ ـ : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى »(٩) ، وما من نبى الا كان من صنعة ربه وتقويمه .

ولقد كان الأولون من الأدباء والبلغـاء المسلمين ، أو أكثرهم ، ينهجون النهج الاسلامى ، ويتحرون محجته ، ولكن تغير الحـال ، وتبدل الرجال ، وانحرفت الأذواق ، فأصيب الأدب العربى الاسـلامى بمحنة قاسية كادت تضعه فى المرتبة الثانية ـ فى أحسن الأحوال ـ بعـد أدب الانطلاق الهمجى الذى جعل من الأخلاق الفاضلة أصفادا تعوق مشاعر الشاعر ، وتحد من أغراضه(١٠) .

وهـذا الكذب المباح له مكانة فى الدراسات الأدبيـة المختلفة ما بين منكر ومؤيد(١١) وخـلاف بين المنكرين والمنكرين ، والمؤيدين والمؤيدين .

الرافعى فى موكب الأيـام

ـ الأستاذ مصطفى صادق الرافعى ، سـورى الأصل ، مصرى المولد ، اسلامى الوطن بمعنى الكلمة وحقيقتها .

ـ كان الشيخ محمد الطاهر الرافعى أول وافـد على مصر بأمر السلطان العثمانى ليتولى قضاء الأحناف سـنة ١٢٤٣هـ حوالى سـنة ١٨٢٧م وهـذا الشيخ لم يعقب نسـلا .

ـ توافد بعده من الأسرة من توافد حتى كان منهم أربعون قاضيا فى وقت واحـد .

ـ وأبو الأستاذ الرافعى هو الشيخ عبد الرازق الرافعى ترأس المحاكم الشرعية فى كثير من الأقاليم ، وكان آخـر أمره رئيسا لمحـكمة طنطا الشرعية ، وفى طنطا أقام ، وفيها مات ودفن .

ـ وأم الرافعى سورية الأصل أيضا ، وأبوها الشيخ الطوخى كان تاجرا تسير قوافله بين مصر والشام ، ولكنه اتخـذ مصر وطنـا ، وأقام فى بهتيم ، وكان له بهـا ضيعة ، وفيها ولد الرافعى كما أرادت أمه ـ يناير ١٨٨٠م وماتت أمه فى أسيوط ودفنت بها ، ثم نقلت الى مقابر الأسرة فى طنطا .

ـ نشأ الرافعى فى بيت علم ودين ، وتربى على القرآن الكريم والسنة المطهرة .

ـ استمع الرافعى أول ما استمع الى أبيـه ، استمع العـلم ، وحفظ بعض القرآن ، ووعى كثيرا من سير الأولين ، ولم يدخـل المدرسة الا بعـد سن العاشرة بسنة أو سنتين ، وحصل على الشهادة الابتدائية من مدرسة المنصورة الأميرية وسنه سبع عشرة سنة ، ولم ينل غيرها من الشهادات .

ـ كان حنفى المذهب كسائر الأسرة ، لكنه درس المذهب الشافعى وكان يأخـذ برأيه •

ـ فى السنة التى حصل فيها على الابتدائية أصيب بمرض التيفود الذى أفقده سمعه شيئا فشيئا ، فما أتم الثلاثين الا وهو لا يسمع شيئا مما حوله ، فانقطع عن الناس •

ـ أكب بعـد هـذا الداء على مكتبة أبيه واستوعبها ، فكانت علته خيرا عليه وبركة •

ـ تزوج الرافعى فى الرابعـة والعشرين من عمره من أسـرة البرقوقى ، وهى أسرة مصرية صريحة النسب ، زوجه صديقه وصـفيه الشيخ عبد الرحمن البرقوقى أخته ، ولهذا الزواج قصة طريفة •

ـ فى أبريل من سنة ١٨٩٩ عين كاتبا فى محـكمة طنطا الشرعية بأربعة جنيهات شهريا ، وتنقل كثيرا بين المحاكم ، وبعض البلدان •

ـ بدأ تاريخه الأدبى سنة ١٩٠٠ ، أى وهو فى سن العشرين •

ـ فى يوم الاثنين بعـد ظهر العاشر من مايو سنة ١٩٣٧ كانت جريدة البلاغ تحمل نعيه الى الأمة العربية والاسلامية • فليرحمه الله •

ـ قد استقينا هـذا من الكتـاب الوافى فى حيـاته « حيـاة الرافعى » •

الأدب الاسـلامى

المصطلح والقضـية

ليس بمنكور أن مصطلح « الأدب الاسلامى » لم يكن موجـودا أو معروفا قديما ، أو قبل عصرنا هـذا ، لأنه لم تكن اليـه حاجة ، أما وقـد ظهرت المذاهب المختلفة ، ورافقها تقنين أهدافها ، وتحـديد

اتجاهاتها فى معالجة قضـــايا ، فليس من بـــد فى وجود أدب محدد الأهداف والاتجاهات يصادم هـــذا الأدب ، ويوقف تيار زيفه ، وعلى وجه أخص اذا ما تحقق لنـــا أن كل هـــذه المذاهب أو أغلبها قد كرس جل همه لمحاربة الاسلام وما يتصل به فى شتى الفـــروع ، بدءا من تزييف المفهوم الاسلامى الأصيل ، وربما بلا انتهاء(١٢) .

لقد نشأت الوجودية واتخذت منهجا وطريقا ، ونشأت الواقعية ، والواقعية الاشتراكية ، ولكل منهما منهجه وطريقه أيضا ، ومذاهب أدبية وفلسفية أخرى يطول حصرها(١٣) ، لعل آخرها ، أو المتأخر منها مذهب « الحداثة » ومذهب « ما بعـــد الحـــداثة » وفى هـــذين المذهبين مجاهرة وقحـــة جدا ـــ على حـــد تعبير أستاذنا محمود محمد شاكر ـــ مجاهرة بمعاداة العربية ومذاهبها البيانية ، بل المعتقدات الاســـلامية وثوابتها ، وستمر بنا نماذج من ترهات هؤلاء .

لا مناص اذن من ايجاد أدب اسلامى له التـــزامه ، وله أدباؤه ونقاده الملتزمون ، والتزامهم يتحـــرى القيم العليـــا التى فطـــر الله الناس عليها ، وأكدها الدين الحنيف ، ويتوخى القيم الجمالية ، ومـــا يثير المتعـــة التى لا تنفك تصاحب الأهداف السامية ، يزجيها صـــدق الوجدان ، وأمانة التعبير ، فيكون النتاج أدبا قادرا على خلق حيـــاة تسعى الى الأفضل دائما ، وتواكب جديد القضايا والمشكلات .

وحيث ان أدب الرافعى قـــد حيزت له تلك الصـــفات وفوقها ، واختص الرافعى بالدعوة اليها والحفاظ عليها ، وجدتنى مدفوعا دفعـــا الى أن أستخرج من فيض أدبه بعض الصور والقضايا الاسلامية ، وأنا على يقين بأن أدب الرافعى كله أدب اسلامى صرف ، حتى ما كان منه فى مجال الشعر الغزلى ، كان يعالج فيـــه قضية .

من هـــذا البحر أردنا الاغتراف أو الرشفة من كتابه « وحـــى القـــلم » .

منهج الأدب الاسلامى

لا أظن متأملا متأنيا يقول بضيق مجالات الأدب الاسلامى ، لأن هذا الكون الفسيح ، والذى لم تعرف حوافه ونهاياته على الرغم من تلك الاكتشافات المذهلة ، والتى ماتزال تحث الخطى نحو أسرار كوننا العجيب ، كل ذلك وما وراءه هو من مجالات الأدب الاسلامى ، بله مشكلات المسلمين .

ومن مجالات الأدب الاسلامى هذه الحياة بكل ما فيها من قضايا ومظاهر ومشاكل ، ولكنها مجالات يتناولها الأديب المسلم وفق التصور الاسلامى الصحيح لهذه الحياة . هو أدب يعبر بصدق وأمانة عن آمال الانسان الخيرة ، ويعالج فيه نواحى الأنانية والانطواء على الذات .

هو أدب يتناول الانسان وقضاياه من الواقع الذى رسمه الاسلام لهذا الانسان ، من واقع قوله تعالى — : « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير »(١٤) .

هو أدب الضمير المؤمن الحى ، والوجدان السليم ، والتصور الصحيح ، والخيال البناء ، والعواطف المستقيمة ، انه أدب القيم والوضوح »(١٦) .

ومنعم النظر فى قوله — تعالى : « قل انظروا ما فى السموات والأرض .. »(١٧) يرى عجبا ، ويزداد عجبه واعجابه عندما يقف على ما كتبه فى هذا الجزء من الآية الكريمة صاحب ظلال القرآن ، فقال : ان الفطر البشرية السليمة بينها وبين هذا الكون لغة خفية غنية ، وان هذه الفطر تسمع لهذا الكون ، حين تتفتح وتستيقظ ، وتسمع منه الكثير .

والنظر فى السموات والأرض يمد القلب والعقل بزاد من المشاعر والتأملات ، وزاد من الاستجابات والتأثرات ، وزاد من سعة الشعور بالوجود ، وزاد من التعاطف مع الوجود ، ... وذلك كله فى الطريق الى امتلاء الكينونة البشرية بالايقاعات الكونية الموحية بوجود الله ، وبتدبير الله ، وبسلطان الله .. »(١٧) .

هنا لك اذن منهل عذب لكل وارد ، يأخذ منه كل على قدر حاجته ، أو على قدر ما تتسع له نفسه من الفهم والادراك ، هل فى ذلك ما يشبع المطامح الأدبية أيا كان نوعها ؟

وان آية الآيات فى هذا الكون هو الانسان ، فى ذاته ، وفى فكره وتقلبات حالاته ، وفى تكوينه ، وفى جميع صفاته ، انه وحده عالم فسيح فسيح ، يبحر فى ظاهره وباطنه الأدب والأدباء ، فهو مشكلة المشكلات وقضية القضايا فى الحياة . والكشف عن حقيقة هذا الانسان لا تتأتى بدون الوقوف على الخطاب القرآنى الذى خاطبه به خالقه ، فلقد خاطب فيه مشاعره وحواسه ، وخاطبه فى كل حالاته ، خاطب سره وجهره ، وعلم هذا الخطاب واستكناه حقائقه يفتح أبوابا فساحا أمام الأديب بحيث لا يدرك مداها،وهل فى القرآن والكون ما لا يمت الى الانسان بسبب ووشيجة(١٨) ؟

ان لمحة واحدة من لمحات الشاعر « محمد اقبال » تكشف لنا عن كثير من حقيقة هذا الانسان ، وتلك اللمحة الشعرية الشاعرة قد استمدها من معانى القرآن ، ومن توجيهاته للانسان ، صاغ ذلك فى قصيدته « الوحدة » التى صور فيها انفراد الانسان فى العالم بالعقل والوجدان ، واحتماله الآلام ، وأنه لا يجد نجيا بين هذه الخلائق ، كما فى القرآن الكريم « انا عرضنا الأمانة على السموات

والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا »(١٩) قال :

قد قلت للبحر يوما في موجه المتعال
أراك دائب سعى فما تكن ببال
أفيك مثلى صدر بجوهر القلب حالى
فصد عنى بجزر
ولم يرد سؤالى
وقلت للطود يوما يا خاليا من عناء !
أنال سمعك صوت من زفرة وبكاء ؟
ان كنت تحوى عقيقا فيه عروق دماء
فواسنى بحديث انى حليف شقاء
فصد عنى بصمت
ولم يرد سؤالى
جددت فى السير حتى أتيت بدر السماء
فقلت : يا نضو سير حتام ذرع الفضاء ؟
الأرض مرج زهور من نورك اللألاء
أخلف نورك قلب فى حرقة وعناء ؟
رأى الكواكب ترنو
ولم يرد سؤالى
وقلت لله ربى من بعد طوف البرية ؟
أما بدنياك هذى من ذرة بى حفية ؟
أكل طينى قلب وذى البرايا خلية ؟
طابت مروج ولكن ليست بشدوى حرية
أجابنى بابتسام
ولم يرد سؤالى

هذه حال الانسان فى العالم ، لا يجد شريكا له بين الخلائق يناجيه ويواسيه ، والله ــ تعالى ــ حجب عنه الأسرار ، ووكله بالكشف عنها(٢٠) فهو مرتبط بهذا الكون ، والكون مرتبط به مسخر له ، وعلى هذا كان خطاب القرآن الكريم للانسان .

وهذه الطبيعة فى رونقها وجمالها الفتان جزء من الكون الفسيح ، أو زهرة من أزهاره الفواحة بعبقرى الأريج .

هذه « الطبيعة توحى ، والشاعر ينطق وهى مصدر الهام عظيم فى الأدب ، وللشعر فيها مجال فسيح . افتن بها الشعراء ، وتردد اليها الملهمون من أهل الفنون ، فوجدوا بين أحضانها منفسحا من القول ومتسعا من الكلام ... »(*) .

ودائما يكون لكل شاعر منحاه المسيطر ، والنابع من داخله ومن رؤيته ، فمنهم من يستجلى فى مظاهره قدرة الله وبديع صنعه ، ومنهم من يجعل مظاهره الجميلة لهوا وعبثا .

على أن الذين يريدون الانعتاق من هذا الأدب ، والانفلات من دائرته ، والخروج على حدوده ، انما يريدون مجالا يتسع لشهوات ورغبات ليست فى الانسان السوى ، ولو كان غير مسلم ، وأول ما يجذبهم ويأخذ بتلابيبهم خلاعات الغوانى وما يتصل بهن ، ولو أن شاعرا تناول المرأة متأملا فى صنع الله فيها وبديع ابداعه لكشفا عن آيات تدعو الى الايمان ، واذن لهان الأمر وتقبله محبو الأدب المتأمل الجميل ، ولكنه كلام من الغزل والتشبيب الذى يتوكأ على وصف المظاهر المثيرة ، والمهيجة للغرائز القبيحة ، والتى تبيح الاباحية ، فاذا خرج هؤلاء الى مطلق هواهم كان شعرهم هكذا :

نحن توجناك فى تهويمة لفجر الها

وعـلى مذبحـك الفضى مرغنـا الجبـاها
يا هـــوانا يا ألـم
ومن الكتـان والسمسم أحـرقنا بخـورا
ثم قـدمنا القـرابين ورتلنـا سـطورا
بابليـات النغـم
نحن شـيدنا لك المعبـد جـدرانا شـذية
ورششنا أرضـه بالزيت والخـمر النقيـة
والدمـوع المحـرقة
نحن أشعلنا لك النـيران من سـعف النخيل
وأسـانا وهشـيم الفحـم فى ليل طـويل
بشـفاه مطبقـة
نحن رتلنـا ونادينـا وقـدمنا النـذور
بلح من بابل السـكرى وخبـز وخمـور
وورود فرحـة
ثم صـلينا لعبدنيك وقربنـا الضـحية
وجمعنا قطـرات الأدمـع الحـرى السخية
وصـنعنا مسبحة(٢١)

وكان شعرهم أيضا هكذا :

لا شـىء لكى أكتب كلمـة
فالكلمـة فى شـفة اللـه
واللـه على الأرض سجين(٢٢)

وكم هائل من هـذه الأباطيل ، والأعمال التى هى الى الكفر أقرب منها الى الايمان ، بل كفر صريح كما جاء على لسان واحد منهم :

فنحن جميعـــا أموات
أنا ومحـــمد واللـــه
وهذا قبرنا أنقاض مئذنة معفرة
عليها يكتب اســـم محـــمد واللـــه(٢٣)

هـــذه نتائج الحرية المنحرفة ، أو قل : انها نتائج عدم التـــأمل الواعى فى هـــذا الكون والحياة ، لأن التأمل الواعى قـــد يهتـــــدى به صاحبه الى أصول الفطرة ، فيلمس فى نفسه أثارات دالة على الحق، وأنه يعرف حـــق المعرفة •

ومن هـــذا الباب المتبسط يمكننا أن نجعل من الأدب كل أدب يدعو الى الفضيلة ويمقت الرذيلة ، ولو صـــدر عن أديب لا يدين بالاسلام ، كطاغور مثلا •

يقول ســـيد قطب :

كلما ولد أديب ولد معه كون عظيم ، لأنه سيترك للانسانية فى أدبه نموذجا من الكون لم يسبق أن رآه انسان •

وكل لحظة يمضيها القارىء مع أديب عظيم ، هى رحـــلة فى عالم، تطول أو تقصر ، ولكنها رحـــلة فى كوكب متفرد الخصائص ، متميـــز السمات •

تعال نصاحب « طاغور » فترة من الوقـــت فى عالمـــه الراضى السمح ، فان عنده دائما ما يعطيه ، ولن نعود صـــفر اليدين بعد رحلة مع هـــذا الروح المـــانح الوهاب :

« اليوم لم يختم بعد • والسوق التى على شاطىء النهر لا تزال «لقد خفت أن يكون يومى قد تبدد • وآخر دراهمى قـــد ضاع

« ولكن • لا • لا يا أخى • انى مازلت أملك شيئا لأن حظى لم يسلبنى كل شىء •

« الآن انتهى البيـــع والشراء •

« لقـــد جمعت حصيلتى من الطرفين

« والآن حان وقت عودتى الى البيت

« ولكن ، أيها الحارس ، أفتطلب ضريبتك ؟

« لا تخف يا أخـــى • لأنى مازلت أملك شـــيئا • لأن حظى لم يسلبنى كل شىء •

« ان سكون الريح ينـــذر بالعاصفة

« وأن السحب المتجهمة فى الغرب لا تبشر بخير

« والمـــاء ساكن ينتظر الريح

« أما أنا فأهرول لأعبر النهر قبل أن يدركنى الليل

« ولكن ، يا صاحب المعبر ، أفتريد أن تطلب أجرك ؟

« أجل يا أخى ، انى مازلت أملك شيئا ، لأن حظى لم يســلبنى كل شىء •

« وفى ظلال الشجرة على جانب ، تربع الشحاذ

« وا أسفاه ! انه يحدق فى وجهى ، وفى عينيه رجاء وحياء !

« اننى فى ظنـــه غنى بما ربحت فى يومى

« أجل يا أخى ، انى مازلت أملك شيئا ، لأن حظى لم يســلبنى كل شىء •

« لقد اشتد ظلام الليل ، وأقفر الطريق ، وتألق الحبـــاحب بين أوراق الشجر (٢٥) •

« من عساك تكون يا من تتبعنى فى خطوات متلصصة صامتة ؟

« آه لقد عرفت ، انك تريد أن تسرق منى كل أرباحى
« لن أخيب ظنك !
« لأنى مازلت أملك شيئا ، لأن حظى لم يسلبنى كل شىء !
« وصلت المنزل عند منتصف الليل بيدين فارغتين
« وأنت لدى الباب تنتظرين فى يقظة وصمت ، وفى عينيك الرغبة
« وكعصفورة وجلة طرت الى صدرى ، يدفعك حب تواق
« آه يا الهى • ان شيئا كثيرا مايزال معى ، لأن حظى لم يخدعنى ، ويسلبنى كل شىء(٢٥) •

* * *

وقد نقلنا النص على طوله لأنه يحمل فكرة متكاملة وقصة مرتبة العناصر متماسكة •

وفيها الأهداف الانسانية التى نتجت عن تجربة شعورية فى صورة موحية ، وعالجت قضية مهمة • يقول « سيد قطب » معقبا على هـذا النـص :

أترى أنها رحلة الى السوق ، أم أنها رحلة فى حياة ؟ وأى رضاء وأى اطمئنان ، وأية نقـة تلك التى تستشعرها فى هـذه الرحـلة مع « طاغور » ؟ •• الحياة تعطى ، والحياة تأخذ ، ولكن هناك فى النهاية ثروة لا تنفد ، ثروة القلب والشعور • وتلك السماحة الراضية حتى مع السارق المتلصص الذى يريد أن يسرق أرباح اليوم كله :

« لن أخيب ظنك » ! وذلك الحب العميق الشفيف الرفاف : « وأنت لدى الباب تنتظرين فى يقظة وصمت •••• » وقد سرقت حصـيلة اليوم كله لألا يخيب ظن السارق ، ولكن « ان شيئا كثيرا ما يزال باقيا معى » انه هنا فى ذاك القلب الكبير •

ان لحظـات مع هـذا « الانسـان » فى هـذا العالم الراضى كالفردوس ، الناعم كالأحلام ، لهى عمر جديد ، وكون جديد (٢٦) بغير حدود ، يجد فيه كل طالب مطلبه ، وكل مبتغ مبتغاه .

وحى القلم : المنهج والأدب الاسـلامى

من المسلمات أن أدب الرافعى كله أدب اسلامى ، حتى الغـزلى منـه ، كما قلنا (٢٧) ، فكل مظهر من مظاهر الحياة والأحياء يرى فيه خالق الحياة ، ويرى فيـه وجهة الاسلام وتفرده بالسمو فى جميـع الأحوال ، وهـذا مثل كاشف :

« ... فمن أحب ورأى حبيبته من فرط اجلاله اياها كأنها خيال ملك يتمثل له حلم من أحلام الجنة . ورأى فى عينيها صـفاء الشريعـة السماوية ، وفى خديها توقد الفكر الالهى العظيم ، وعلى شفتيها احمرار الشفق الذى يخيل للعاشق دائما أن شمس روحه تكاد تمسى .. ورآها فى جملة الجمال تمثال الفن الالهى الخالد الذى يدرس بالفكر والتأمل ، لا بالحس والتلمس ، فأطاعها كأنها ارادته ، واستند اليها كأنها قوته ، وعاش بها كأنها روحه ؛ فذلك الذى يشعر بحقيقة الحب ، ويفهم معنـاه السماوى . وهو الذى يقول لك صادقا مصدوقا : ان كل لفظة من لغـة الطبيعـة فى تفسـير معنى الحب كأنها صلصلة الملـك الذى يفجـأ الأنبياء بالوحى فى أول العهد بالرسالة » (٢٨) .

وأرى سؤالا يطرح نفسه : اذا كان أدب الرافعى فى جملته يحمل الطابع الاسلامى ، فلماذا « وحى القلم » دون سواه ؟

لقـد اخترنا « وحى القلم » دون سواه من كتب أدبنا الكثيرة ، لأنه آخـر كتاب أنشأه الرافعى ، ففيه النفحة الأخيرة من أنفاسـه ، والنبضة الأخيرة من قلبه ، والومضة الأخيرة من وجدانه ....

وهـذا الكتاب يجمـع كل خصـائص الرافعى الأدبيـة متميزة

بوضوح ، فمن شاء فليقرأه دون سائر كتبه ، فسينكشف له الرافعى فى سائر كتبه ..»(٢٩) .

وهذا الكتاب « يجمع كل خصائصه العقليـة والنفسـية متميزة بوضوح فى موضوعه ، ففيـه خلقـه ودينـه ، وفيه شبابه وعاطفته وفيـه تزمته ووقاره ، وفيه فكاهته ومرحه ، وفيه غضبه وسخطه ، فمن شاء أن يعرف الرافعى عرفان الرأى والفـكرة والمعـاشرة فليعرفه فى هـذا الكتاب .

ولأنه « بيان كأنه تنـزيل من التنـزيل ، أو قبس من نور الذكر الحكيم »(٣٠) .

لهذا ولغيره تخيرنا « وحى القلم » ولعل تركيزنا على كيف الأدب الاسلامى والقضايا الاسلامية عند أديب العربية والاسلام دون الكم فيه غناء عن الاستقصاء أو التطويل .

يقول الرافعى : « أنا لا أعبأ بالمظاهر التى يأتى بها يوم وينسخها يوم آخـر ، والقبلة التى أتجه اليها فى الأدب انما هى النفس الشرقية فى دينها وفضائلها ، فلا أكتب الا ما يبعثها حيـة ويزيد فى حيـاتها وسمو غاياتها ، ويمكن لفضائلها وخصائصها فى الحياة ، ولذا لا أمس من الآداب كلها الا نواحيها العليا ، ثم انه يخيل الى دائما أنى رسـول لغوى بعثت للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه ... »(٣١) .

فأدب الرافعى اذن أدب يرتكز على الثوابت الاسلامية ، تلك التى تبدو دائما فى ثياب قشب ، تبدو جديدة مهما تغير الزمن والقيم ، وكيفما توالت السنون .

وهذه صور من الأدب الاسلامى فى وحى القلم ودراسة لها .

١ ــ الصـورة الأولى

خير ما نبدأ به تلك القصة التالدة الطريفة التى التقط خيوطها من قوله ــ تعالى ــ « وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب

وقالت هيت لك قال معاذ الله انه ربى أحسن مثواى انه لا يفلح الظالمون • ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عند السوء والفحشاء •• »(٣٢) واختار لهذه القصة عنوان « سمو الحب » ثم انطلق تاليا علينا ما أدركه فهمه ووجدانه من وحى القرآن ، قال :

« صاح المنادى فى موسم الحج : لا يفتى الناس الا عطاء ابن أبى رباح • جلس عطاء يتحين الصلاة فى المسجد الحرام ، فوقف عليه رجل ، وقال : يا أبا محمد ، أنت أفتيت كما قال الشاعر :

سل المفتى المكى هل فى تزاور
وضمة مشتاق الفؤاد جناح ؟

فقال : معاذ الله أن يذهب التقى
تلاصق أكباد بهن جراح »

هذا مدخل من أطرف المداخل وأعجبها الى ما سيجريه على لسان « عطاء » فى تفسيره للآيتين الكريمتين ، وفيها — فى ظنى — حسم لقضية النمم كما يرى الرافعى ، وهى حقا قضية كثرت حولها الأحاديث والآراء والتأويلات(٣٣) •

لاشك أن الشعر قد مس وترا حساسا فى ضمير عطاء « فرفع رأسه وقال : والله ما قلت شيئا من هذا ، ولكن الشاعر هو نحلنى هذا الرأى الذى نفثه الشيطان على لسانه ، وانى لأخاف أن تشيع القالة فى الناس ، فاذا كان غد وجلست فى حلقتى فاغد على ، فانى قائل شيئا » •

ان الفتوى التى نظمها الشاعر شعرا ما هى الا نفثة شيطان ، فنسبتها الى عطاء فرية ان صدقها المنحرفون عن الجادة كانت لهم سندا واباحة للسقوط ، وذلك ما دعا عطاء الى أن ينفى عن نفسه ، وأن يصدر نفيه بالقسم بالله •

على أن كلمة عطاء « فاغد على فانى قائل شيئا » سرت فى الناس

مسرى النار فى الهشيم ، وكثر عجبهم وتساؤلهم « كيف يدرى الحبه أو يحسن أن يقول فيه من غير عشرين سنة فراشه المسجد ، وقد سمع من عائشة أم المؤمنين ، وأبى هريرة صاحب رسول الله ـ ﷺ ـ وتهامس الناس وتسامعوا وأكثروا من الكلام الذى يفهم منه أن عطاء هذا « مؤيد بمثل الوحى فى كلامه . فكأنما هو نجى ملائكة يسمع ويقول » .

غدا عطاء الى المسجد ، وغدا الناس وفيهم « عبد الرحمن أبى عمار » الشاب الفتى من فتيان المدينة .

والذين لم يروا عطاء ترتسم فى أذهانهم للرجل صورة ملك أو زعيم أو قائد أونى من القوة والصرامة ، يراه عبد الرحمن ولم يكن رآه من قبل ، « فاذا هو فى مجلسه كأنه غراب أسود ، اذ كان ابن أمة سوداء تسمى « بركة » ومع سواده كان أعور أفطس ، أشل أعرج مفلفل الشعر ، لا يتأمل المرء منه طائلا ، وكذلك تسمعه يتكلم فتظن منه ومن سواده ـ والله . أن هذه قطعة ليل تسطع فيها النجوم ، وتصعد من حولها الملائكة وتنزل » .

هذا هو عطاء فى هيئته وسمته ، فمن أجلسه ذلك المجلس ، وأنزله تلك المنزلة ؟ . لكأنى بالرافعى يطوى سؤالا فى كلامه ، ويطوى اجابة عليه طويلة جدا ، ولكن القرآن الكريم يجمل ذلك فى جملة واحدة « ان أكرمكم عند الله أتقاكم »(٣٤) .

يتناول الرافعى المجلس العلمى ليصوغه بعلمه وبأسلوبه ، ولقد كان فى مكنته أن يجعل عطاء يرد نافيا الفتوى عن نفسه دونما وعد بدرس ومجلس علم ، ولكنه أراد أن يلقن الدرس للأمة وشبابها من خلال القرآن وكيفية فهمه ، ولكى يكون الدرس أنجع وأنجح وأكثر قبولا ، أجراه على لسان فقيه صادق ومصدق فيما يقول :

أخـذ الشيخ فى تأويل الآيتين من سورة يوسف ، فكان قـوله « كلاما قدسيا تضع له الملائكة أجنحتها من رضى واعجاب بفقيـه الحجاز » ، حفظ منه « عبد الرحمن بن عبـد الله أبى عمار » قوله : « عجبا للحب ! هـذه ملكة تعشق فتـاها الذى ابتـاعه زوجها بثمن بخس ، ولكن أين ملكها وسطوة ملكها فى تصوير الآية الكريمة ؟ لم ترد الآية على أن قالت : « وراودته التى » .

يغوص الرافعى فى ضمير الألفاظ والكلمات مستكنها سرها ، مجليا وحيها ، شأن العربى الذى فهم لغته ، وأوقف قلمه على اذاعة ابداعاتها واشاعتها .

قال : و « التى » هـذه كلمة تدل على امرأة كائنـة من كانت ، فلم يبق على الحب ملك ولا منزلة ، وزالت الملكية من الأنثى » !

وهـذا كلام متضمن معنى « هو فى بيتها » الدالة على تمكنها منه حق التمكن ، الواثقة من اطاعته حق الوثوق ، بصفته غلامها وخادمها .

« وأعجب من هـذا كلمـة « راودته » وهى بصيغتها المفـردة حكاية طويلة تشير الى أن هـذه المرأة جعلت تعترض يوسف بألوان من أنوثتها لون بعـد لون ، ذاهبة الى فن راجعة الى فن ، والمراودة مفاعلة من راد يرود اذا جاء وذهب (٣٥) ، وهـذا يصـور حـيرة المـرأة العاشقة ، واضطرابها فى حبها ، ومحاولتها أن تنفذ الى غايتها » ولكنها لا تريد أن تظهر متهالكة متهافتة ، فهى تحـاول اخفاء ذلك خلف التمنع والتعـزز .

ثم قال : « عن نفسه » ليدل على أنها لا تطمع فيـه ، ولكن فى طبيعته البشرية ... وكأن الآية مصرحة فى أدب سام كل السمو ، منزه غاية التنزيه بما معناه : « ان المـرأة بذلت كل ما تستطيع فى اغرائه وتصبيه ، مقبلة عليـه ومتدللة ومبتذلة ، ومنصبه من كل جهـة ، بما

فى جسمها وجمالها على طبيعته البشرية ، وعارضة كل ذلك عرض امرأة خلعت ــ أول ما خلعت ــ أمام عينيه ثوب الملك » • فعجبا للحب !!

ثم قال : « وغلقت الأبواب » ولم يقل « أغلقت » وهذا يشعر أنها لما يئست ، ورأت منه محاولة الانصراف ، أسرعت فى ثورة نفسها مهتاجة تتخير القفل الواحد أقفالا عدة ، وتجرى من باب الى باب ، وتضطرب يدها فى الاغلاق ، كأنما تحاول سد الأبواب لا اغلاقها فقط » •

هذا استبطان نفس امرأة العزيز وغوص فى أغوارها وأعماقها ، ووصف اواقع يقع من كل امرأة ، وخاصة اذا ما كان المفتتن كالفتى « يوسف » عليه السلام •

هذه ملكة تأمر وتنهى ، ولا يعصى لها أمر ولا نهى ، ولا تراجع فى قول ، تجد نفسها لحظة ما أمام فتاها ، وتعرض عليه نفسها فيعرض عنها فى عفة وكبرياء ، ألا يكون هذا مما زاد فى ثورتها ثورة ، وفى اضطرابها اضطرابا ؟ حقا هو موقف يصعد بها الى قمة الغضب والهياج ، كأنى بها عندئذ لم تكن تدرى من أين تحتوشها الثورة وتحتويها الغضبة ، أفمن رغباتها الجامحات ، أم من اعراض فتاها وصده اياها ، مع أنه ربيبها وصنعة يدها ؟ حقا هو موقف قاس وأليم ، فعجبا للحب •

« وقالت هيت لك » ومعناها فى هذا الموقف أن اليأس قد دفع بهذه المرأة الى آخر حدوده ، فانتهت الى حالة من الجنون بفكرتها الشهوانية ، ولم تعد لا ملكة ولا امرأة ، بل أنوثة حيوانية صرفة ، متكشفة مصرحة ، كما تكون أنثى الحيوان فى أشد هياجها وغليانها » •

ينتهى الراقعى من بيان هذه الأطوار الثلاثة التى كانت محنة ليوسف فى خلقه أولا ، وفى رجولته ثانيا •

أما محنة الأخلاق فقد نجا منها بتجلي عظمة الرجولة السامية المتمكنة في معانيها فقال مغلقا أبواب الاغراء ، ومقطعا حبائل الشيطان : « معاذ الله • انه ربي أحسن مثواي • انه لا يفلح الظالمون » • معاول ثلاثة حاول بها الواحد تلو الآخر أن يهدم بها نزوة الشيطان الذي تحصن بداخلها ، وأن ينبه ضميرها ليستيقن بالله ، وأن يعلمها كيف يكون رد الجميل ، انه يحفظ العهد ، فنقضه ظلم عظيم •

وعلى الرغم من جلال هذا الكلم الذي تقدم ، فاني أرى بيت القصيد أو الهدف الذي أراد توكيده ، هو «ولقد همت به وهم بها لولا أن رآى برهان ربه •• » لأنه سيرتب على هذه القصة المحكية على لسان ابن نبي يعد للنبوة ، سيرتب عليها قصة شبيهة أو قريبة على لسان واحد من صالحي الأمة ، هو «عبد الرحمن القس»وسلامةجارية سهيل بن عبد الرحمن » •

قال الرافعي : « ان حب امرأة العزيز كان قد انحصر في فكرة واحدة اجتمعت بكل أسبابها في زمن في مكان في رجل ، فهي فكرة محتبسة كأن الأبواب مغلقة عليها أيضا ، ولذا بقيت المرأة ثائرة ثورة نفسها ، وهنا يعود الأدب الالهي السامي الى تعبيره المعجز فيقول : (ولقد همت به) كأنما يومىء بهذه العبارة الى أنها ترامت عليه ، وتعلقت به ، والتجأت الى وسيلتها الأخيرة ، وهي لمس الطبيعة بالطبيعة لالقاء الجمرة في الهشيم ••• ! » •

هذه سطور الرافعي ، سامية سمو الاسلام ، مؤدبة بأدب الاسلام ، أما الذي في أطوائها فانا نتخيله حيا يجول أمام أنظارنا ، ولو صرحنا به أو شرحنا لكان أدبا من ذلك الأدب المكشوف الساقط الذي تزدحم به الساحات ، وتتهافت عليه أغلب الأقلام •

قال : ... وهنا يقع ليوسف عليه السلام ــ برهان ربه كما وقع لها هى برهان شيطانها ، فلولا برهان ربه لكان رجلا من البشر فى ضعفه الطبيعى .. وههنا المعجزة الكبرى ، لأن الآية الكريمة تريد ألا تنفى عن يوسف عليه السلام ــ فحولة الرجولة ، حتى لا يظن به ، ثم هى تريد من ذلك أن يتعلم الرجال ، وخاصة الشبان منهم : كيف يتسامون بهذه الرجولة فوق الشهوات .. حتى ولو كان الاغراء من ملكة فاتنة مطاعة ، وان الوسيلة التى تجعل المغرى لا يرى شيئا من هذا ــ هى أن يرى برهان ربه » .

وبرهان ربه يؤوله كل انسان بما شاء ، فهما أمام الله يراهما ، وأن الله يعلم السر وأخفى ، وغدا القبر والحساب وشهادة الأعضاء ، وأن المرء كما يدين يدان ، فهذا الجزم قد يكون فى أخته أو بنته ، وأن وأن ، فبرهان ربه كلمة محكمة ومعجزة ، مخملة بعديد المعانى والتأويلات .

والدرس الصالح يدخل فى حظيرته الصالحين ، ويضعهم على مهيع لا يضيع سالكه . وعى عبد الرحمن بن عبد الله الدرس ، ولزم الامام وعزم على أن يتشبه به وأن يسلك مسلكه ، وجعل شعاره « رأى برهان ربه » ، وقد عصمه الله حتى لقبه أهل المدينة « بالقس » لعبادته وزهده .

وفى خبر طويل المعنا اليه من قبل « أن سلامة المغنية الحاذقة الظريفة الجميلة الفاتنة ... التى لم يجتمع فى امرأة مثلها حسن وجهها، وحسن غنائها ، وحسن شعرها ، قد وقعت فى شراك حب القس ، ووقع هو أيضا فى شراك حبها ، وأن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك الذى اشتراها كان كلما طلب غناءها غنته من شعر القس ، وكأنها تغنى وتعزف لهذا الحبيب ، غنته مرة :

ان التى طـرقتك بين ركائب تمشى بمزهرها وأنت حرام
لتصيد قلبك ، أو جزاء مودة ان الرفيـق له عليك ذمام
باتت تعللنا وتحسب أننا فى ذاك أيقـاظ ونحن نيام

وغنتـه مرة :

ألا قل لهـذا القـلب هل أنت مبصر
وهل أنت عن سلامة اليـوم مقصر
اذا أخذت فى الصوت كاد جليسها
يطـير اليهـا قلبـه حين تنظـر

ومرة بعد أخرى عرف أمير المؤمنين مدى حبها القس وحب القس لها ، ولكن بعـد أن ظن بهما الظنون ، ونفت سـلامة ظنونه بالبرهان والأيمان ، وتمضى فى تفصيل قصتها مع القس ، وقد وضعت كل همها فى اغرائه واغوائه ، تماما كما حدث ليوسف وامرأة العزيز ، قالت :

« وقد أردت أن أظهر امرأة فلم أفلح ، وعملت أن أظهر شـيطانة فانخذلت ، وجهدت أن يرى طبيعتى فلم يرنى الا بغير طبيعة ، وكلما حاولت أن أنزل به عن سكينته ووقاره رأيت فى عينيه ما لا يتغير كنور النجوم ، وكانت بعض نظراته ـ والله ـ كأنها عصا المؤدب وكأنه يرى فى جمالى حقيقة من العبادة ، ويرى فى جسمى خرافة الصنم ، فهو مقبل على جميلة ، ولكنه متصرف عنى امرأة » .

أرأيت كيف يريك الأديب المسلم وجه الله فى كل لمسة وكل خاطرة ، وأن معين الأدب الأخلاقى فياض لا ينضب أبدا ، وأنه خضم لا ينقص منـه الا بمقدار ما يزيد ، بل انه لا ينقص أبدا مادام مصدره الكتاب العـزيز .

تقول سلامة لأمير المؤمنين : « واعدته أن يجيء متى وارى الليل أهله لأغنيه : ألا قل لهذا القلب ... ، فقد لحنته ولم يسمعه ، ولبثت نهارى أستروح فى الهواء رائحة هذا الرجل مما أتلهف عليه ... وأخذت من صنوف الزينة كل مأخذ .. ثم جاء مع الليل وان المجلس لخال ما فيه غيرى وغيره ... فكان كأنه يرى امرأة فى مرآة ، لا امرأة ماثلة بهواها وشبابها وحسنها وفتنتها ... ، وراحت تصنع صنيع امرأة العزيز . قالت : « فلما ظننتنى ملأت عينيه وأذنيه ونفسه وانصبت اليه من كل جوارحه ، وهجت التيار الذى فى دمه ، ودفعته دفعا ــ قلت له : أنت ياخليلى شيء لا يعرف ، أنت شيء متلفف بانسان ، ومن التى تعشق ثوب رجل ليس فيه لابسه ؟ ورأيته والله يطوف عند ذلك بفكره ، كما أطوف أنا بفكرى حول المعنى الذى أردته ، فعلت اليه وقلت : (٣٦) « أنا والله أحبك ! » .

فقال : وأنا والله الذى لا اله الا هو ...

قلت : وأشتهى أن أعانقك وأقبلك !

قال : وأنا والله !

قلت : فما يمنعك ؟ والله ان الموضع لخال !

قال : يمنعنى قول الله ــ عز وجل ــ : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين »(٣٧) فأكره أن تحول مودتى لك عداوة يوم القيامة .

انى أرى برهان ربى يا حبيبتى ، وهو يمنعنى أن أكون من سيئاتك ، وأن تكونى من سيئاتى ، ولو أحببت الأنثى لوجدتك فى كل أنثى .... ثم قام وهو يبكى ، فما عاد بعد ذلك ... » .

لقد استهوانا تنميق الرافعي فبسطنا القول بسطا ، ومن وراء دوافعنا التي تود الكشف عن درر التراث من خـــلال أدب الرافعي ، وتود أن تؤكد أبدا أن بمقدور الأديب أن يجعل الحيـــاة بكل عناصرها لسانا ينطق دائما ليكشف عن قدرة الله ، ولسانا مسبحا ذاكرا ومذكرا بعظمة ذي الجلال ، الله الذي « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا » (٣٨) .

٢ ــ الصورة الثانيـــة

ومن صور الأدب الاسلامي وقضـــاياه ، ما ترى الرافعي يديره حول محور واحد ، ويجعل ذلك المحور الفاعل الأول والمتصرف في شتى الأمور وهو :

اللـــــه أكبـــــر

وقد صنع هذا عنوانا لقصة أراد أن يديرها على فتى كما أحب، خبيث داعر ، وفتاة كما أحبت..عذراء متماجنة ، كلاهما درس وتخرج في ثلاثة معاهد : المدرسة ، والروايات الغرامية ، والسينما ، هو مصري مسلم ، وهي مسيحية مسلمة ، ولكن لكل منهما من الدين الاسم وحده ، فلا وزن ولا معنى له عندهما ، ولكنه عنـــد العقلاء حرية القيد لا حرية الحرية . غلب على الفتى والفتاة ما وفد من فلســـفة الأدب المكشوف والحياة المنطلقة اللاهية حتى تحول الانسان الى فيلسوف حمار .

تسير القصة في بنائها على أن تخلب الفتاة وتؤخذ بمعسول كلام الفتى الذئب حتى توشك على السقوط ، وفي ذهنها أفكار تتصارع ، ونظرات الى المستقبل تتزاحم ، ولـــد من ســـفاح ، هو نتاج شـــهوة عابرة ، واقرار بالزواج واصرار على الطلاق بعد ســـاعة ... فاذا

أوشكت الفتاة أن تصرع تلك الصرعة ، دوى فى الجو صوت المؤذن : « الله أكبر » ! لقد وقعت الحياة السماوية فى الحياة الأرضية فتنبهت الفتاة .. ورأته فى حبيبها الدعى وجه فاجر فاسق ، غلبته نزواته ، وصار أداة شيطان .

ويمضى الرافعى فى وصف الصراع الداخلى الذى يتردد فى صدر الفتاة الى أن يكرر المؤذن فى ختام أذانه « الله أكبر الله أكبر » فاذا ...

ويمسك الرافعى عن المواصلة ، فقد تبلد فكره ، وهربت خواطره ، فنام . ومن خلال رؤياه المنامية يقص علينا عمل الكلمة « الله أكبر » وكيف أنها نشيد الأرض الصاعد الى السماء .

رأى الناس فى العيد لهم هدير كهدير البحر فى تلاطمه وهم يرددون « الله أكبر الله أكبر » ويتخذ مجلسه بجوار رجل كانه ملك ، كان بادنا يملأ جسده موضع رجلين ، وما أن وصل اليه حتى انكمش فكأنما يطوى طيا ، فعجب وصار يسأل نفسه : أين ذهب نصفه الضخم ، وقد كان بعضه على بعض زيما على زيم(٤٠) .

يرى الرافعى أن « الله أكبر » كلمة تقشعر من النطق بها جلود الذين يخشون ربهم ، غير أن الناس مما ألفوا الكلمة ومما جهلوا من معناها لا يسمعونها الا كما يسمعون الكلام ، أما الذى كان بجواره فكان له انتفاضة وارتعاشة جرفت الرافعى فى خضمها ، ورآه يذهل عن نفسه ويتلألأ على وجهه نور لكل تكبيرة ...

ثم يقول : وعرفت والله من معنى المسجد مالم أعرف ، حتى كأنى لم أدخله من قبل . فما المسجد عند الرافعى ؟ وما رسالته وأهدافه ؟

انه تصحيح للعالم الذى يموج من حونه ويضطرب ، فان فى الحياة أسباب الزيغ والباطل والمنافسة والعداوة والكيد ونحوها ، وهذه كلها يمحوها المسجد ، اذ يجمع الناس مرارا على سلامة الصدر ، وبراءة القلب ، وروحانية النفس ، ولا تدخله انسانية الانسان الا طاهرة منزهة ، مسبغة على حدود جسمها من أعلاه وأسفله شعار الطهر الذى يسمى الوضوء ، كأنما يغسل الانسان آثار الدنيا عن أعضائه قبل دخوله المسجد وهم على ذلك سواسية كأسنان المشط .

والمسجد عند الرافعى : هو فى حقيقته موضع الفكرة الواحدة الطاهرة المصححة لكل ما يزيغ به الاجتماع ، هو فكر واحد لكل الرءوس ، ومن ثم فهو حل واحد لكل المشاكل .

والله أكبر فى أول الصلاة وفى آخرها وفى خلالها أزمة ينقاد لها المسلمون طواعية .. لقد قضيت الصلاة ، وآقبل كل يسلم ويهنىء ، وسلم الرافعى على ذلك الرجل الملك ، وتذكر قصته ، « واذا » التى لم يجد لها جوابا ، وعزم أن يسأل جاره الملك ، ولم يكد يرفع وجهه اليه سائلا حتى قال : « ... فاذا لطمتان على وجه الشيطان ، فولى مدبرا ولم يعقب ، ووضعت الكلمة الالهية معناها فى موضعه من قلب الفتاة ، فلأيا بلأى ما نجت ... الله أكبر ! أتدرى ماذا تقول الملائكة اذا سمعت التكبير ؟ انها تنشد هذا النشيد .

ثم يسترسل شارحا آثارها فى تربية الفرد والجماعة ، ومدى فضلها وفضل ترديدها بين الوقت والوقت من ليل أو نهار ...

وفى خطاب الواثق بصدق فكرته ورأيه يقول : لن يكبر عليكم شىء مادات كلمتكم « الله أكبر » لفظة بسيطة وخفيفة ، ولكن فعلها ما أعظمه ! ومن دلائل عظمتها أن بنى الرافعى منها قصة هى غاية

فى بابها ، وفريدة فى عقدها • ذلك شأن الأديب المسلم ، وشأن الأدب المهتدى بهدى الايمان ، والملتزم بقيمة الكلمة ، وأنها شـــهادة لقائلها أو عليـــه « كل نفس بما كسبت رهينة ••• »(٤١) •

٣ ــ الصـــورة الثالثـــة

ومن صور الأدب الاسلامى فى وحى القـــلم ، وقضاياه البارزة ، ما يعالجـــه الرافعى فى :

ــ اليمـــامتان

وهو عنوان لقصة تاريخية ، ومن الروائع الاســـلامية التى كتبها الرافعى ، مجليا فيها عظمة الاسلام ، وسمو رجاله ، ونصاعة باطنهم البادية على مظاهرهم •

وكما التقط خيوط « سمو الحب » من آى القرآن ، وخلص منها الى قصة فى التراث وفى كتب الآداب ، يلتقط هنا خيوط تلك الرائعـــة من كتب التاريخ ، فيقول(٤٢) :

جاء فى تاريخ الواقدى « أن (المقوقس) عظيم القبط فى مصر ، زوج بنته (أرمانوسة) من (قسطنطين بن هرقل) وجهزها بأموالها حشما لتسير اليـــه حتى يبنى عليها فى مدينـــة « قيســـارية »(٤٣) فخرجت الى « بلبيس »(٤٣) وأقامت بها ، وجاء عمرو بن العاص الى بلبيس فحاصرها حصارا شديدا ، وقاتل من بها ، وقتل منهم زهاء ألف فارس ، وانهزم من بقى الى المقوقس ، وأخذت « أرمانوسة » وجميع مالها ، وأخذ كل ما كان للقبط فى بلبيس ، فأحب عمرو ملاطفة المقوقس ، فسير اليـــه ابنته مكرمة فى جميع مالها مع (قيس بن أبى العـــاص السهمى) فسر بقدومها •• » •

هـذا ما أثبته الواقدى فى روايته ، ولم يكن معنيا الا بأخبار المغازى والفتوح ، فكان يقتصر عليها فى الرواية ، أما ما أغفله فهو ما نقصه نحن :

ذلك هو الحدث كما سجله التاريخ ، يمسك الرافعى به ليجعل من جمله قصة فى داخلها قصصا ، وكلها يصدر عن مورد واحد ، هو خيال الرافعى وقدرته على الصياغة العربية الآسرة ، مع القدرة على توليد المعانى وتسلسلها متماسكة محبوكة ، يفضى كل حدث فيها الى ما بعده حتى النهاية ، فكأنه يقيد قارئه بقيود لا يقوى على الفكاك منها متى بدأ الا أن يصل الى نهاية ما بدأ فيه .

وقارىء الرافعى دائما يلح عليه سؤال : أهذا الذى ينسجه الرافعى حقيقة صرفة ، أم خيال صرف ، أم أن الأديب جمع بينهما ومزجهما مزجا يصعب الوقوف منه على الحقيقة والخيال ؟

ولقد يجيب عن هذا التساؤل قوله : ان العمل الأدبى يعتمد على البلاغة ، والبلاغة لا تعدو كلمتين : قوة التصور ، والقوة على ضبط النسبة بين الخيال والحقيقة (٤٤) .

وهذا شىء مهم جدا ، فما أكثر الكلام الذى يمجه الذوق السليم ، لأن ضبط النسبة فيه بين الحقيقة والخيال غير مرعية أو لا وجود لها وهذا المعنى قد توسع فيه عند الظاهر ، ولكن بأسلوبه الخاص(٤٥) .

والقصة عند الرافعى لا تعدو أن تكون مقالة من مقالاته فى أسلوب جديد ، فهو لا يفكر فى الحادثة أول ما يفكر ، ولكن فى الحكمة والمغزى ... فهمه الأول أن يفكر فى الحكمة التى يريد أن يلقيها على ألسنة التاريخ(٤٦) .

على أن الرافعى فى أسلوبه القصصى يرينا من نفسه موهبة لو قدر لها أن تتجه الى كتابة القصة ومعالجتها لأحسنت ، فله لمسات ظاهرة فى فهمه دخائل النفوس وما يعتمل فيها ، ويرينا فى أبطاله سمات على قدر ما يحب هو ويريد ، ولأن مراده دائما سمو بالأجساد والأرواح يرينا فى أبطاله المسلمين ملائكة فى ثياب بشر ، وقد رأينا من ذلك أنموذج « عبد الرحمن القس » والمغنية الفاتنة « سلامة » ؛ أما « يوسف الصديق » فهو أسمى من ذلك وأعلى .

يبدأ الرافعى قصته بعد عرضه النواة التاريخية السابقة فيقول :

« كانت لأرمانوسة جارية تسمى مارية ، اختلط جمالها اليونانى بالجمال المصرى فصارت فتنة تمشى على الأرض ، كانت قوية الدين ، قوية العقل ، اتخذها المقوقس كنيسة حية لابنته ، وكان واليا على مصر من قبل هرقل .

جاء الفتح الاسلامى فى عهده ، فجعل الله قلبه مفتاح القفل القبطى .

كانت أبواب الروم محصنة ، وخلفها مائة ألف مقاتل ، يقاتلون المعجزة الاسلامية التى جاءت من بلاد العرب بأربعة آلاف رجل ، لم يزيدوا فى آخر الأمر عن اثنى عشر ألفا ، وقد حولتهم عقيدتهم الى اثنى عشر ألف مدفع فى وقت لم تعرف فيه المدافع ، وجعلتهم قوة الروح الاسلامية مادة متفجرة تشبه الديناميت قبل أن يعرف الديناميت(٤٧) .

واضح جدا هدف الرافعى من تركيزه على ركائز الجهاد ، تلك التى ما سرت فى أمة الا بعثت فى أوصالها الحياة ، وهابها الناس حتى

الأقـــوياء ، ولأن شـــاهد التاريخ بين يدى أديبنا المسلم ، فانه يريد أن يرجع بالأمة الى ماضيها المشرق ، حين نفخ فيها الاسلام من روحه فعرفت حقيقـــة الحـــياة ، وأخص الخصائص عرفانهم أن الايمـــان ســـلاح ، لأن حامله يقاتل لاحدى الحسنيين ، النصر أو الشهادة .

نزل عمرو بجيشه على بلبيس ، فنزل بمارية هلع وفزع . أجـــاد الرافعى تصويره ، وأحسن الكشف عن مخبوء مارية وأرمانوسة .

ان مارية لم تسمع عن العرب الفاتحين الا أنهم همج الناس ، وقائدهم عمرو كان جزارا فى الجاهليـــة ، فما تدعه روح الجـــزارين ولا طبائعهم ، يصحبه أربعة آلاف ســـالخ من شـــذاذ النـــاس هم جيشـــه .

لا غرو أن من ســـمع ذلك أو يسمعه يصـــاب برعشـــة المحموم ورعدته ، وتخبط من به مس شيطان ، ولكن الذين لهم أدنى معـــرفة بهـــؤلاء الفاتحين يستبشرون بقدومهم ، ويستأنسون بجوارهم ، وذلك ما سوف نقف عليـــه .

« وكانت مارية وأرمانوسة ممن درسن أدب اليـــونان وفلســـفة الاغريق ، وهـــذا ما ضاعف من ســـعة خيالهما ، ناهيك أنهما على طبيعة الأنثى وعواطفها ، فالمبالغة فى الأشياء عندئذ أنسب ، وعلى وجـــه أخص فى الأحزان ، فان بعض الألفـــاظ تصير وقودا على الدم ».

لقد اتسع الخيال الحزين ، وسلك كل سبيل ، وأخـــذ التوقـــع والتوجس مأخذه ، و «راحت مارية تتلو شعرها الباكى على أرمانوسة ، تصف فيـــه غلظـــة العرب ، وويل من تناله أيديهم ، ولم يرجع اليهـــا رشدها ، أو يردها الى لب الحقيقة الا قول أرمانوسة : « أنت واهمة

يا مارية ، أنسيت أن أبى قد أهـدى الى نبيهم بنت (أنصنا)(٤٨) فكانت عنده فى مملكة بعضها السـماء وبعضها القـلب ؟ • ثم مضت تحدثها عن هـذا الدين وعن نبيه وأصحابه ـ كما سمعت من أبيها ، الى أن قالت عن النساء : لأن تخاف المرأة على عفتها من أبيها أقرب من أن تخاف عليها من أصحاب هذا النبى •

وتعجب من لمحات الرافعى التى ينفذ اليها بعقـله الواعى فيقول على لسان مارية :

« لقـد مات سقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم من الفلاسـفة والحـكماء ، وما استطاعوا أن يؤدبوا بحكمتهم وفلسفتهم الا الكتب التى كتبوها •• فلم يخرجوا للدنيا جماعة تامة الانسانية ، فضلا عن أمة كما وصفت أنت من أمر المسلمين •••

لقد كان المسيح طيلة عمره يحاول أن يوجد هـذه الأمة ، غير أنه أوجدها مصغرة فى نفسه وحوارييه •• وظـهور الحقيقة من هـذا الرجل الأمى هو تنبيه الحقيقة الى نفسها وبرهانها القاطع أنهـا بذلك فى مظهرها الالهى •

يطيل الرافعى من الحديث بين مارية وأرمانوسة ، وكله لا يخرج عن طبيعة الاسلام ورسوله ورجاله ، وشعورهم بذاتهم وبمسئوليتهم أمام خالقهم •

وينهزم الروم ، وتعاد أرمانوسة الى أبيها فى صحبة « قيس » وهنا كلام كثير نظمه الرافعى فى عقـد بيانه حتى يصل بنا الى هدف سـام بل أسمى ، هو أن الصلاة قـد وجبت ، فنزل يصلى بمن معه والفتـاتان تنظران ، فلما صـاحوا : « الله أكبر ••• » ارتعش قلب

مارية ، وسألت الراهب (شـطا) : ماذا يقولون ؟ قال : ان هذه كلمة يدخلون بها صلاتهم ، كأنما يخاطبون بها الزمن أنهم الساعة فى وقته ليس منـه ولا من دنياهم ، وكأنهم يعلنون أنهم بين يدى من هـو أكبر من الوجود .....

ولا نسترسل ، فقـد سـبق حـديثه المتـع عن هـذه الكلمة « الله أكبر » وكيف فعلت فعلها مع شيطان الانس وشيطان الجن(٤٩) .

ويدير الرافعى حوارا بين مارية وأرمانوسة والراهب ليخلص منه الى قضية هى جـد خطيرة ، قضية الصلاة التى تصير الى الحـركات وتخلو من الخشوع وتدبر ما فيهـا من آيات وأهداف . قال الراهب شـطا :

« ولكن هؤلاء المسلمين متى فتحت عليهم الدنيا وافتتنوا بها ، وانغمسوا فيها فستكون هـذه الصلاة بعينها ليس فيها صلاة يومئذ .

ونطوى الحديث عن حب مارية عمرا ، وحب أرمانوسة فتى رومانيا لنقف على شأن عمرو وفسطاطه واليمامة التى باضت فى أعلاه .

« سار عمرو الى الاسكندرية لقتـال الروم بعد أن فتح مصر صلحا مع القبط ، وكان أمر القائد آن يقوض فسطاطه ، فوجد جنـده يمامة قـد باضت فى أعلاه ، فأخبروه فقـال : « قـد تحـرمت فى جوارنا ، أقروا الفسطاط حتى تطير فراخها » . فأقروه .

وازاء هـذا الموقف الانسانى الاسلامى تقول مارية شـعرا ، ثم تقضى نحبها ، فتنشده أرمانوسة ، وأسمته : نشيد اليمامة ، ومنه :

على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها

تركها الأمير تصنع الحياة ، وذهب هو يصنع الموت !

على قسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها

يمامة سعيدة ، ستكون فى التاريخ كهدهد سليمان

نسب الهدهد الى سليمان ، وستنسب اليمامة الى عمرو

واها لك يا عمرو !! ما ضرك لو عرفت اليمامة الأخرى ؟؟

بان اذن آن الأديب المسلم قادر دائما على تطويع الحياة وأحداثها ، والتاريخ ومساراته لخدمة القيم والمثل العليا التى ينشدها الاسلام •

٤ ــ الصورة الرابعة

ومن صور الأدب الأدب الاسلامى والقضايا الاسلامية التى عالجها الرافعى ببيانه العربى فى وحى القلم(٥٠) والمستوحاة من التاريخ أيضا :

قصة زواج وفلسفة المهر

لقد شغل الرافعى بهذه الفكرة ، وامتلأت بها نفسه ، وليس من شك فى أن ظاهرة التغالى فى المهور قد زامنها ولمس سوء فعلها ، ولا شك كذلك فى أنه كان يجول بخاطره فى ماض كان المهر فيه آيات من القرآن أو خاتما من حديد ، فـ « لما هم أن يكتب عن « المعجزة المالية » فى تقاليد الزواج وفلسفة المهر ، وقد اجتمعت له الفكرة فى ذلك ، تناول ــ كعادته ــ كتابا من كتب العربية يقرأ فيه ما تيسر، فاتفق له فى مطالعته أن قرأ قصة سعيد بن المسيب والوليد بن عبد الملك وأبى وداعة ، فرآها أشبه بموضوعه ، وفيها تمامه ••• فكانت قصته •

وعن أول خيط فى هـذه القصة يقول : « ... لقـد وقعت على نادرة مدهشة من التاريخ تتحدث عن فلسفة المهر حديثا لا أعرف أبلغ منـه فى موضوعه »(٥١) .

وبطل هـذه النادرة الأول الذى بنيت عليـه القصة هو سعيد بن المسيب الذى قال فيـه عبد الله بن عمر : « لو رآى هـذا رسـول الله ﷺ لسره » ، والذى حج نيفا وثلاثين حجة ، ولم تفته التكبيرة الأولى فى المسجد منذ أربعين سنة ، ولم يقم الا فى موضعه من الصف الأول.

ويبدأ الحدث بمجىء الرسول أمير المؤمنين عبد المـلك بن مروان الى « ابن المسيب » خاطبا ابنته لولى عهد الخلافة ، فيأبى « سعيد » مفلسفا رفضه ، ومبينا وجهـة نظره .

ويجلس « سعيد » للدرس فى مسجد رسول الله ـ ﷺ ـ ويسأله سائل من عرض المجلس عن المهر على عهد رسول الله ، فيجيبه بالمـأثور ، ويفند كل اعتراض ، ثم يوازن بين قيمة المهر وقيمة الرجل الذى يختار زوجا ، ويشرح ما تكون عليه الزوجة فى بيت زوجها .

أدى الشيخ صلاته ثم ذهب الى بيته ، وبعـد برهة طرق الباب طارق ، فاذا هو « عبد الله بن أبى وداعة » جليسه وملازم حلقتـه ، ولكنه كان قد تخلف أياما لوفاة زوجه . يسـأله الشيخ عما اذا كان استحدث زوجة ، فيجيبه بأنه لا يملك مهرا ، ويزوجه الشيخ ابنته .

ويحتال أمير المؤمنين لسعيد حتى يوقعه فى محنة وقحة ليتولاها بعدها عبد المـلك بن مروان « آنا ..... ؟ » .

تلك هى محاور القصة ، وهذه أبطالها ، وبين هـذا وذاك تجـد الرافعى الكاتب والأديب والشاعر ، تجد سحر البيان وسر العربية ،

تجد حفيا بالخواطر ، متصيدا درره من أعماق التاريخ ، وهمه اظهار الحقائق التى اتسم بها الاسلام والمسلمون ، يدير ذلك كله فى حوار فصيح ، وبيان عربى يعود بنا الى عصور الفصحاء الأولين . قال :

« قال رسول عبد الملك : ويحك يا أبا محمد ! لكأن دمك — والله — من عدوك ، فهو يفور بك لتلج فى العناد فتقتل ، وكأنى بك — والله — بين سبعين قد فغرا عليك ، هذا عن يمينك وهذا عن يسارك ، ما تفر من حتف الا الى حتف ، ولا ترحمك الأنياب الا بمخالبها .

هكذا كان الند ، وعيدا وتهديدا ، وتفننا فى الكلمات التى تكشر عن أنياب ، ويتطاير من بين أنيابها شرر الحقد والاصرار على الغضب ، يتخلل ذلك استعطاف بتنميق حلو الأوصاف ، ثم ينتهى الى قوله :

« ... وانك — والله — ان لججت فى عنادك ، وأضررت أن تردنى اليه خائبا ، لتهيجن قرم(٥٢) سيوف الشام الى هذه اللحوم ، ولحمك يومئذ من أطيبها ، ولأمير المؤمنين تارتان(٥٣) . لين وشدة ، وأنا اليك رسول الأولى ، فلا تجعلنى رسول الثانية ...

ولنا أن نتخيل انسانا ما توجه اليه تلك القذائف ، ومن أمير المؤمنين محكية على لسان رسوله ، نخاله يموت فرقا ، أو أن يستجيب لما طلب منه مسرعا ، لأن المطلب واضح ، ولدى سعيد قضاؤه ، فماذا هو فاعل ؟

« لقد كان يسمع كل كلمة ولكن بعد سقوط معناها على الأرض ، هيبة منه وفرقا من اقدامها عليه ... لقد سمع ما سمع وهو كالسماء فوق الأرض ، لو تحول الناس جميعا الى كناسين يثيرون من غبار هذه على تلك لما كان مرجع الغبار الا عليهم ، وبقيت السماء ضاحكة صافية تتلألأ » .

لقد لان رسول عبد الملك حتى جعل الأرض ذهبا تحت قدمى سعيد ، واشتد حتى ملأ الجو سيوفا وصواعق من فوق رأسه ، ولكن أمره انتهى الى يقينه بأنه من الشيخ العظيم كالصبى الغر • ثم تكلم أبو محمد سعيد بن المسيب فقال :

« يا هذا ، أما أنا فقد سمعت ، وأما أنت فقد رأيت ، وقد روينا أن هذه الدنيا لا تعدل عند الله جناح بعوضة ، فانظر ما جئتنى انت به ، وقسه الى هذه الدنيا كلها ، فكم — رحمك الله — تكون قد فسدت فى من جناح البعوضة ؟ ويسترسل الشيخ معددا ما أغرى به ، وما أعرض هو عنه ليكشف عن انه لم يبايع عبد الملك ، وأنه الآن لا يخطب ابنته ، بل يخطب بيعته •

يقول رسول عبد الملك :

« ايها الشيخ ، دع البيعة وحديثها ، ولكن من عسى أن تجد لكريمتك خيرا من هذا الذى ساقه الله اليك ؟

ويطيل فى ذكر ما سيعود على الشيخ من وراء هذا الأمر ، ويطيل فى انه راع ومسئول عن رعيته ، ابنته . وفى وصف فارس بنى أمية الذى أرادها زوجا • وكأنى بالرافعى هنا يقول لكل راع : قل كلمة حق وواجه بها من شئت ولا تخش فى الله أحدا ، حتى ولو كان هذا هو عبد الملك أو رسوله ، تجد ذلك فى صياغته درسا عنيفا قاسيا على لسان سعيد ، وفى موقف صعب يتوقع من ورائه ابتلاء • يقول الشيخ :

« أما انى مسئول عن ابنتى ، فما رغبت عن صاحبك الا لأنى مسئول عن ابنتى ، وقد علمت أن الله يسألنى عنها فى يوم لعل أمير المؤمنين وابن أمير المؤمنين وألفافهما لا يكونون فيه الا وراء عبيدها وأوباشها ودعارها وفجارها(٥٤) ، يخرجون من حساب الفجرة الى

حساب القتلة ، ومن حساب هؤلاء الى الحساب على السرقة والغصب ، الى حساب أهل البغى ، الى حساب التفريط فى حقوق المسلمين . ويخف يومئذ عبيدها وأوباشها ودعارها وفجارها فى زحام الحشر ، ويمشى أمير المؤمنين وابن أمير المؤمنين ومن اتصل بهما ، وعليهم أمثال الجبال من أثقال الذنوب وحقوق العباد .

والمتأمل فى هذا الكلام سيجد مادته كلها اما من الكتاب واما من السنة ولا تكاد جملة تخرج عن هذا النهج أبدا ، ديدن الرافعى وطريقته فى كل ما يكتب .

واذ يفرغ الرافعى من تلك المواجهة الحادة بين فقيه من الرعية ، وبين بيت الخلافة وما حيز لها من المنعة والقوة ، اذ يفرغ الرافعى من تقرير هذا الدرس يأخذ بنا الى درس المهر وفلسفته فى الاسلام ، وكيف كان فى عهوده الأولى ، وكيفية النظر اليه ، ثم كيف صار على عهده والعهود التى من بعده . قال :

« ولما كان غداة غد جلس الشيخ فى حلقته فى مسجد رسول الله — ﷺ — للحديث والتأويل ، فسأل رجل من عرض المجلس ، فقال : يا أبا محمد ، ان رجلا يلاحينى فى صداق بنته ، ويكلفنى ما لا أطيق ، فما أكثر ما بلغ اليه صداق أزواج رسول الله — ﷺ — وصداق بناته ؟

وينطلق الشيخ مجيبا ومؤيدا اجاباته بما روى وحفظ من الآثار النبوية ، وآثار من صحبه — ﷺ — ، منها : « خير النساء أحسنهم وجوها وأرخصهن مهورا » . وكأن الشيخ قد فتح على نفسه بابا لم يكن ليتوقع فتحه ، اذ يصيح سائل : « يرحمك الله يا أبا محمد ، كيف يأتى أن تكون المرأة الحسناء رخيصة المهر ، وحسنها هو يغلبها على الناس ، تكثر رغبتهم فيها فيتنافسون عليها ؟

ومن وجهة نظر الشيخ أن مثل هذا انما يكون فى البهائم

والبضائع ، ومراد رسول الله ـ ﷺ ـ ليس هكذا ، « انما أراد أن لخير النساء من كانت على جمال وجهها ، فى أخلاق كجمال وجهها ، وكان عقلها جمالا ثالثا .

ثم يطيل الحديث حول ميزة هذه المرأة متى ظفرت بكفئها ، ثم ما يترتب على ذلك فى سير الحياة وسيرتها ، ثم يذكر صورة معاكسة لجميلة حمقاء غالية الثمن ، أغلاها جمالها ، لكنها من شرار الناس .

ومرة ثانية يركز الرافعى على دروس السنة ، وعلى فعله ـ ﷺ ـ وتلك وجهة لها مبررات لا تتناهى ، فالرسول هو القدوة ، وهو الأسوة الحسنة ، واكن آثار هذا وتأثيره لا تظهر مظاهره الا على أمة علمت فوعت فالتزمت .

فى هذا الصدد أو فى هذا الدرس يسوق الرافعى جملة من الأمثلة الطيبة فى زواج رسول الله ـ ﷺ ـ ، فيقول على لسان الشيخ :

« ولقد تزوج رسول الله ـ ﷺ ـ بعض نسائه على عشرة دراهم(٥٥) ، وأثاث بيت ، وكان الأثاث : رحى يد ، وجرة ماء ، ووسادة من أدم حشوها ليف ، وأولم على بعض نسائه بمدين من شعير ، وعلى أخرى بمدين من تمر ومدين من سويق(٥٦) ، وما كان به ـ ﷺ ـ الفقر ، ولكنه يشرع بسنته ليعلم الناس من عمله أن المرأة للرجل نفس لنفس ، لا متاع لشاريه ....

« وما الصداق فى قليله وكثيره الا كالايماء الى الرجولة وقدرتها فهو ايماء ، ولكن الرجل قبلك . ثم يتبع ذلك بفيض من الأمثلة الكاشفة من تجارب الحياة ، وهذا بدوره دعا الى سؤاله عن دليل فقال :

« نعم ، أما فى كتاب الله فقد قال تعالى : « خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها » فهى زوجه حين تجده هو لا حين تجد ماله ، وهى زوجه حين تتممه لا حين تنقصه ....

وأما من كلام رسول الله ــ ﷺ ــ فقد روينا : « اذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه ، الا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » .

ويسهب الرافعى فى شرح تلك المعانى ، مضيفا الى سموها سموها ، ومضفيا عليها ثيابا ضافية من روائعه البيانية ، وصوره الناطقة المتحركة أمام قارئه ، وفى كل ذلك يوازن بين حسن الصفات وما يترتب عليها ، ومرذول الصفات وموبقات عواقبها ، وأقر بأن جلال كلام الرافعى يوجد فى مصدره ، وفى ترابطه وتسلسله ، ونحن هنا انما نتحسس طريقنا الى ما دبجه قلمه فى باب الأدب الاسلامى الحق .

لقد ألقى الشيخ درسه على خير ما تلقى الدروس ، وأكد مبادئه على أحسن ما تؤكده المبادىء ، وختم ذلك بقول رسول الله ــ ﷺ ــ :

« يأتى على الناس زمان يكون هلاك الرجل على يد زوجته وأبويه وولده ، يعيرونه بالفقر ، ويكلفونه ما لا يطيق ، فيدخل المداخل التى يذهب فيها دينه فيهلك » .

ثم : « وصاح المؤذن ، فقطع الشيخ مجلسه ، وقام الى الصلاة ، ثم خرج الى داره ، فلقيته ابنته وعلى وجهها مثل نوره ، قالت : يا أبت ، كنت أتلو الساعة قوله تعالى : « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة » فما حسنة الدنيا ؟ قال : يابنية ، هى التى تصلح أن تذكر مع حسنة الآخرة ، وما أراها للرجل الا الزوجة الصالحة ، ولا للمرأة .....

وطرق الباب ... فاذا الطارق « عبد الله بن أبى وداعة » .... قال الشيخ : أين كنت ؟

قال : توفيت أهلى فانشغلت بها .

قال الشيخ : هلا أخبرتنا فشهدناها ... ، وأراد عبد الله القيام ، فقال سعيد :

هل استحدثت امرأة غيرها ؟

قال : يرحمك الله ، أين نحن من الدنيا اليوم ؟ ومن يزوجنى وما أملك الا درهمين أو ثلاثة .

قال الشيخ : أنا .....» .

أنا ، أنا ، أنا .... دوى الجو بهذه الكلمة فى أذن طالب العلم الفقير ، فحسب كأن الملائكة تنشد نشيدا فى تسبيح الله يطن لحنه : « أنا ، أنا ، أنا ... » .

وراح طالب العلم الفقير فى غشية ، وحق له ذلك ، فما كان ليتوقع أبدا مثل هذا الذى سمع ، شيخه سعيد بن المسيب فقيه المدينة يقبل أن يزوجه ، بل ربما نم حديثه عن أنه يخطب لابنته !!

أليس هذا الشيخ هو الذى أعرض بحزم عن طلب أمير المؤمنين وولى عهده ؟ نعم ، فكيف يكون ابن أبى وداعة أفضل من ولى العهد الذى ستئول اليه الخلافة ؟

وشىء كثير لابد أنه دار بخلد طالب العلم الفقير ...

« فلما أفاق من غشية أذنيه .. قال : وتفعل ؟

قال « سعيد » : « نعم » وفسر نعم بأحسن تفسيرها وأبلغه ، فقال : قم فادع لى نفرا من الأنصار ، فلما جاءوا حمد الله وصلى على نبيه ـ ﷺ ـ ، وزوجه على ثلاثة دراهم (خمسة عشر قرشا) .

ويصف الرافعى حالة الفرح التى شملت ابن أبى وداعة ، وكيف كانت لفظة « أنا » تلازم أذنيه ملازمة ، ويسمع لحنها ويطرب أشد الطرب ، ويفرح أجمل الفرح ، ويتحول كل شىء فى عينيه الى بهجة لم يعهدها ، وحسن لم يألفه .

« وكان صائما ، فصلى المغرب وقدم عشاءه ليفطر ، وكان خبزا وزيتا ، فاذا الباب يقرع ، قال : من هذا ؟ قال الطارق : سعيد ...

وأخذت الهواجس تهجس بعبد الله ، من سعيد ؟ أهو فلان ؟ ... . ولم يخطر بباله أن يكون الطارق سعيد بن المسيب ، فان هذا الامام لم يطرق باب أحد قط ، ولم ير منذ أربعين سنة الا بين داره والمسجد .

فتح عبد الله بابه فاذا به سعيد بن المسيب ، فأسقط فى يد عبد الله ، وتمثل له القبر الذى ضم زوجته ، وظن أن الشيخ أتى ليطلق قبل أن يشيع الخبر ، ثم تلجلج قائلا : يا أبا محمد .. لو .. لو .. لو .. لو أرسلت الى لأتيتك !

قال الشيخ : لأنت أحق أن تؤتى .

سمع عبد الله كلمة الشيخ ، فلا تسل عما ظهر عليه ، ولا عما خالجه ودار بخلده ... ثم .. ثم يفاجئه شيخه بقوله : « انك كنت رجلا عزبا فتزوجت ، فكرهت أن تبيت الليلة وحدك ، وهذه امرأتك !! »

أليس هذا ــ فى نظر الناس من الأمور العجب ؟ ربما كان كذلك ، لكنه بالنسبة لسعيد بن المسيب من الأمور السهلة العادية ، فرأيه أن الظفر برجل يصون ابنته ، ويحفظ عليها دينها ، هو الظفر الذى لا يعادله شىء ، حتى الخلافة .

دفع الشيخ بابنته الى زوجها ومضى ، وصعد عبد الله الى السطح وألقى بالحصى على جيرانه معلنا أنه قد تزوج ، وأن الذى زوجه هو سعيد بن المسيب ، وكان وقع هذا الخبر على الآذان كوقع الصواعق ، وصار كل يتعجب ويستغرب ، « دخل عبد الله بزوجة جميلة ، عالمة فقيهة ، تعينه على فهم المعضل من مسائل العلم ، وسؤال السائلين .

وبعد شهر أتى عبد الله الى حلقة سعيد ، وبعد خلو المجلس قال سعيد :

ما حال ذلك الانسان ..... ؟ ويستطرد الرافعى :

أما ذلك (الانسان) فلم يعرف من الفرق بين قصر ولى العهد ابن أمير المؤمنين ، وبين حجرة ابن أبى وداعة التى تسمى دارا ... ! الا أن هناك مضاعفة الهم ، وهنا مضاعفة الحب .

وما بين (هناك) الى القبر مدة الحياة ــ ستخفت الروح من نور بعد نور ، الى أن تنطفىء فى السماء من فضائلها .

وما بين (هنا) الى القبر مدة الحياة ــ تسطع الروح بنور على نور ، الى أن تشتعل فى السماء بفضائلها .

وما عند أمير المؤمنين لا يبقى ، وما عند الله خير وأبقى .

ولم يزل عبد الملك يحتال لسعيد ويرصد غرائله حتى وقعت به المحنة ، فضربه عامله على المدينة خمسين سوطا فى يوم بارد ، وصب عليه جرة ماء ، وعرضه على السيف ، وطاف به الأسواق عاريا فى تبان(٥٧) من الشعر ، ومنع الناس أن يجالسوه أو يخاطبوه ، وبهذه الوقاحة ، وبهذه الرذيلة ، وبهذه المخزاة قال عبد الملك بن مروان : « أنا ..... »

ولعل ما بعد (أنا) هذه يحمل من العبارات والمعانى ما يملأ الصحائف ، ولكنها بلا ريب صحائف سود ، وقف صحابها فى وجه الحق والعلم ، وفى وجه الفقه والفقهاء ، لقد مضى هؤلاء ، وأولئك ، ولكن بقيت آثارهم تدل عليهم ، وتشهد على صنيعهم ، وتمد الأدب والأديب بالزاد الشهى من سيرة الاسلام .

هذا ، ولم يكتف الرافعى بما صاغه فى هذه القصة ، على الرغم من كفايته وغنائه ، بل ذيلها بما أسماه « ذيل القصة وفلسفة المال » وهى الصورة الخامسة ، وقد تناول فيها كيف أن هذه القصة أثارت جدلا وخلافا ، وجعلت قلوب بعض النساء العصريات المتعلمات تصيح وتناول ... وحدثنا أديب ظريف أن احداهن سألت عن عنوان عبد الملك بن مروان .... ! فتراها ستكتب اليه أنها تقبل الزواج من ولى عهده ؟ .

وتلك سخرية جميلة من الرافعى تدل على ضحالة الثقافة ، وتفاهة المتعلمين والمتعلمات ، وهو فى ذلك لم يكن مفتريا أو مدعيا ، انما هى حقائق تصدقها التجارب والاحتكاك بالناس على اختلاف تعلمهم .

لقد طارت تلك الحادثة فى الناس ، واستفاض لهم قول كثير .

« فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمـانا وهم يستبشرون »(٥٨) وقـد قال جماعة منهم : تالله لئن انقطع الوحى ، ان فى معانيه بقية ما تزال تنزل على بعض القلوب التى تشبه فى عظمتها قلوب الأنبياء ..... « وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسـا الى رجسهم »(٥٩) وقال جماعة منهم : أما والله لو تهيأ لأحدنا أن يكون لصا يسرق أمـير المؤمنين ، أو ابن أمير المؤمنين ، لركب رأسـه فى ذلك ، ما يرده عن السرقة شىء ، فكيف بمن تهيأ له النصر والحسب ، وجاءه الغنى يطرق بابه — ما باله يرد كل ذلك ويخزى ابنته برجل فقير تعيش فى داره بأسوأ حـال .... ؟

« وانتهى كلام الناس الى الامام العظيم ، فلم يجئه الا من الظن خفيا خفيا ....

ثم يمضى الرافعى متمما ما ذيل به قصته ، منطقا الشيخ بممتع الكلمات ، واستخراج طريف المعانى من الآيات ، راسما طريقا ومنهجا تذلل بهما عقبات الدنيا ، وبهما يتغلب المرء على نفسه الأمارة ، وقرينه الرجيم ، يمده زاد من الصبر هو من طبيعة الأنبياء .

وفى هـذا المجلس العلمى المهيب يطلق رجل دسه عامل الخليفة، يطلق سؤالا يكون كالتشنيع على الشيخ ، يقول :

ذلك أيها الشيخ صبر أولى العزم من الرسل ، أو صبر ابنتك على مكاره العيش مع ابن أبى وداعة ، لا يجد الا رمقة(٦٠) يمسك بهـا الرمق عليها ، وقد كانت النعمة لها معرضة ، فدفعتها اليـه — زعمت — التهـلك به شخصـها الحيـوانى ، وتوكلت على الله وألقيت ابنتك فى اليـم .... ؟

هـذا كلام خبيث موجع ، فهم الشيخ أن صاحبه مدفوع وملقن

ما قال . أطرق الشيخ .. ثم رفع رأسه واستدنى السائل الذى تقاعس منتهيا ، فلما جلس بازائه قرأ الشيخ قوله تعالى : « وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص »(٦١) . ثم مضى الرافعى يسأل الرجل على لسان سعيد ، ليخلص الى أسباب رفضه نعيم الخلافة ، وقبوله شظف ابن أبى وداعة ، حوار طويل ، ولكنه يتمحور حول هذين المعنيين ، رخاوة عيش تعقبها حسرات وقساوة ، وعيش كفاف يكافئه النعيم المقيم ، وكأن التذييل برمته تأكيد المعانى التى سيقت فى صلب قصة سعيد .

وبرمز ممتع ونبيل يختتم الرافعى هذا الذيل فيقول :

قال الراوى : وضج الناس لحمامة صغيرة قد جنحت من الهواء ، فوقعت فى حجر الشيخ لائذة به من مخافة ، وجعلت تدف بجناحيها وتضطرب من الفزع ، ومر الصقر على أثرها وقد أهوى لها ، غير أنه تمطر(٦٢) ومرق فى الهواء اذ رأى الناس ... وتناولها الامام فى يده وهى فى رجفتها من زلزلة الهواء ، وكانت كالعروس مسرولة قد غابت ساقاها فى الريش ، وعلى جسمها من الألوان نمنمة وتحبير(٦٣)،ولها روح العروس الشابة يهدونها الى من تكره ، ويزفونها على قاتلها الذى يسمى زوجها — وادناها الشيخ من قلبه ، ومسح عليها بيده ، ونظر فى الهواء نظرة ... وهو يقول : نجوت ، نجوت يامسكينة .

وهذه الخاتمة الرامزة كأنها ، أو هى عصارة القصة على طولها وتفاصيلها

لقد شغل الرافعى كثيرا بقضية الزواج وموضوع الأسرة ، فكتب

فيها وفى مقوماتها الاسلامية أكثر من موضوع أو قصة يعالج فى هذا وذاك أكثر من قضية ، وهو ما نراه فى :

٦ ـ الصـــورة السادسة

« زوجـــــة امـــام »

وهو الامام أبو محـــمد سليمان الأعمش ، الذى ولد سنة احدى وستين للهجرة ، وتوفى سنة ثمان وأربعين ومائة ، وزوجه ، وتلميـــذه أبو معاوية الضرير (٦٣) .

وهـــذه القصة أراد بها الرافعى أن يستوفى موضـــوع الزواج بالحديث الى النساء عن واجب الزوجة ، وبها أتم ما أملاه فى موضوع الزواج ، وعدته ثلاث عشرة مقالة ، أولها مقالة « س . أ . ع » وآخرها الجزء الثانى من « قصة امام »(٦٤) .

واذا كانت هناك موضوعات كتبها الرافعى وخص بهـــا الأزواج والزوجات ، فان تلك الروح نجدها سارية فى أكثر انشائه ، ومعالجة لكثير من أخص الأمور التى يجهلها الناس ، أو يتجاهلونها .

لقـــد تعددت الموضوعات التى عالجها أديب الفكر الاســـــلامى وتنوعت ، وليس من فضول القول أو مكروه أن نقول : انه أجـــــاد وأحسن فى كل ما تناول ، وأن سر الاجادة والاحسان عنده كامنان فى مصدريه الأصليين ، الكتاب العـــزيز والسنة المطهرة ، أضف أن الرجل كان يكتب ما يكتب عن ايمان ويقين ، لا يدلس أفكاره ومشاعره ارضاء لذوى الأهواء ، وكفى بهذا منهجا يخلد الأعمال ، ويجدد ثيابها عـــلى مدى الزمان .

ذلك ، ومن روائع الأدب الاسلامى والقضايا المهمة التى تنبه لها الرافعى وسجلها فى وحى القلم :

« الاشراق الالهى وفلسفة الإسلام »(٦٥)

هذه هى الصورة السابعة من الصور التى حاولنا معالجتها ، وهى قضية أو قصة تناولها أديبنا موازنا بين ما تفجره الشمس من ضوء على الكون فتحيا به الحياة ، وبين ميلاد النبى وما يوجده فى الانسانية من ينابيع النور التى يتضمنها الدين .

واذا كان الليل والنهار يقظة الحياة تحقق أعمالها ، فان الدين هو يقظة النفس تحقق فضائلها ...

ومصدر الفكرة أو القضية هو قول الله تعالى : « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى أعلم ما لا تعلمون »(٦٦) ، ثم ما شابه ذلك من الآيات المتعلقة بالموضوع .

وهذه الآية ونظائرها تحدثنا عن آدم ــ عليه السلام ــ واهباطه الى الأرض وتناسله وتناسل ذريته ، ثم ارسال الرسل الى تلك الذرية .

وتنمو الفكرة أو عناصر القصة عند الرافعى حتى تأخذ شكلا ابتكاريا من حيث قياسها وموازنتها .

تأخذ هذه الموازنة (بين منافع الشمس ومنافع النبى) حيزا طويلا وفلسفيا ، يخرج منه الى أن هذه الخصائص العظيمة النفع قد حيزت لمحمد ــ ﷺ ــ واختص بها الدين الذى أرسله الله به ، وهذه أيضا تأخذ من الموضوع مكانا متسعا .

وأذ يفرغ من تقرير فلسفة الاسلام فى مجالات الحياة ، يؤكد ما يقوم به الحب فى بناء هـذه الحياة ، ثم ليـدلف الى حـب النبى ـ ﷺ ـ ولمـاذا يجب أن يكون ، ويختم بأوامر آمرة بأن نحب هذا النبى العظيم ، وان نعيش فيـه أبدا .

وبين هـذه الأفكار أو العناصر البارزة فى بنـاء الموضـوع ، تجد الرافعى المعتد بعلمه ، القوى بايمانه ، وايمـانه هـذا كان دما يجرى فى دمه ، ونورا يضىء له فى مجاهل الفـكر والعاطفة(٦٧) .

قـــال :

« كما تطلع الشمس بأنوارها فتفجر ينبوع الضوء المسمى النهار ، يولد النبى فيوجد فى الانسانية ينبوع النور المسمى بالدين ، وليس النهار الا يقظة الحياة تحقق أعمالها ، وليس الدين الا يقظة النفس تحقق فضـــائلها .

تلك هى بداية فلسفة الدين وبيان قيمته ومكانته ، فبالشمس يكون النهار ، وبغيرها يكون الظلام التام ، والنهار يقظة الحياة ودافعها الى نشاطها وتحقيق ذاتها فى أعمالها ، ولقد وجدت الحياة ووجد الانسان ، فهل يمكن لهذا الانسان أن يحقق ذاته بأعماله وبدون أنبياء ؟ . هـذا ممـكن ، ولكن ما قيمة الظـلام المطبق الذى لا يعرف معنى النهار ؟ ثم ما قيمة هـذا الانسان هائما فى ضلالاته بدون هدى من الأنبياء ؟ فوجـود النبى اذن لازم للبشرية كلزوم وجـود الشمس للحيـاة ، « والشمس خلقها الله حاملة طابعه الالهى ، فى عملها للمادة تحول به وتغير ، والنبى يرسله الله حاملا مثل ذلك الطابع فى عمله تترقى فيـه وتسـمو .

فالشمس والنبى ـ فى رأى الرافعى ـ فيهما سر من أسرار الله وقـدرته ، فالشمس تحول وتغير ، وتعمل وتعمل ... والعلم يقول ،

والعلماء يكتشفون ، وسر الله باق ، وفى كل يوم تظهر منـــه الغرائب والعجـــائب •

والنبى كذلك . ولكنه دون معرفته الحقيقة نفس وهوى وشيطان•

« ورعشات الضوء من الشمس هى قصة الهداية للكون فى كلام من النـــور ، وأشعة الوحى فى النبى هى قصة الهداية لانسان الكون فى نور من الكلام •

« والعامل الالهى العظيم يعمل فى نظام النفس والأرض بأداتين متشابهتين : آجرام النور من الشموس والكواكب ، وأجرام العقل من الرسل والأنبياء • فقـــد حظى الانســـان اذن بالنصيب الأوفى من الاهتمام ، تماما كما حظى الكون ، بل ان هـــذا الكون على عظمته قـــد سخر للانسان : « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منـــه ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »(٦٨) •

ويمضى الرافعى على هـــذا النمط كاشفا عن حقائق الحيـــــاة ، وحقائق الأنبياء والرسل ، وعمل كل منهما وتداخله ، ومدى حـــــاجة الحياة الى الأنبياء ، بحيث لا يمكن أن يكون فيها صلاح بغيرهم بغير ما تركوه من رسالاتهم •••• يقول :

« ويجىء النبى فتجىء الحقيقـــة الالهيـــة معه فى مثل بلاغة الفن البيانى ، لتكون أقوى أثرا ، وأيسر فهما ، وأبدع تمثيلا ، وليس عليها خلاف من الحس ، وهـــذا هو الأسلوب الذى يجعل انسانا واحدا من الناس جميعا ، كما تكون البلاغة فن لغـــة بأكملها ••••

فاذا استقصى من هـــذه الصفات السامية سمو الأنبياء ، جعـــل الشهادة بصدق تبليغهم مبنية على هـــذا التميز الذى تميزوا به عن

سائر الناس ، ثم يخلص بنا الى أن هـذا الكمال الالهى الذى أفاضه الله على رسله وأنبيائه قـد تجلى فى محـمد ـ ﷺ ـ قال :

« وكل ذلك تراه فى نفس محمد ـ ﷺ ـ فهى فى مجموعهـا أبلغ الأنفس قاطبة لا يمكن أن تعرف الأرض أكمل منها ، ولو اجتمعت فضائل الحكماء والفلاسفة والمتألهين وجعلت فى نصـاب واحـد ، ما بلغت أن يجىء منها مثل نفسه ـ ﷺ ـ ولكأنما خرجت هـذه النفس من صـيغة كصـيغة الدرة فى محـارتها ، أو تركيب كتركيب الماس فى منجمه ، أو صـفة كصفة الذهب فى عرقه ، وهى النفس الاجتماعية الكبرى ، من أين تدبرتها رأيتها على الانسـانية كالشمس فى الأفق الأعلى تنبسط وتضحى .

وتلك هى الشهادة له ـ ﷺ ـ بأنه خاتم الأنبياء ، وأن دينـه هو دين الانسانية الأخير ، فهذا الدين فى مجموعه ان هو الا صورة تلك النفس العظيمة فى مجموعها : صلابته بمقدار الحق الانسـانى الثابت ، لا بمقدار الانسان المتغير الذى يكون عنـد سبب جبلا صلدا يشمخ ، وعند سبب آخر ماء عذبا يجرى .

ويخـرج بنا الرافعى فى اشراقه هـذا من بيـان الى بيـان ، ومن فضيلة الى فضيلة ، هى فى حقيقتها قد وجدت مع هـذا الدين ونبيه منـذ وجـدا ، بيد أن الرافعى يجليها أمام الأبصار والبصائر ، حتى لكأنها لم تكن ، لكثرة الغفلة عنهـا ، ووضـعها مواضـعها من الحيـاة .

ويوضح الرافعى موقف الاسلام الحاسم من الفضائل والرذائل ، والثواب والعقاب ، وكيف تسمو الحياة بالقيم والأخلاق الاسلامية ، وكيف تنهار بانهيار هـذه القيـم وسـيطرة النزوات ، وفى كل ذلك

العرض يضمن الكلمات معـانى الآيات ، حتى لكأنه كلما كتب جمـلة أو سطرا نظر الى معنى آية كريمة يضم من معانيها ما أراد الى معانيه، فهل ينضب هذا المعين ؟ ومما يجب التنويه به والتنبه له أن الرافعى قد جمع بين اجرام السماء ونورها ، ووضـع الأنبياء والرسـل فى بدء موضوعه ازاء هذا ، فالمشابهة لابد منظور فيها الى قول الله تعـالى : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » على رأى من يقول : « النـور هو محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ

وفى الرافعى غيرة على الدين كأنها غيرة الأنبياء ، وله ايمـان به قـد غرس غرسا فى قلبـه وجوارحه ، أو كما قلنا : يجرى دما فى دمه ، ومن ثم نبـع قوله :

« فليس يعم السلام الا اذا عم هـذا الدين بأخلاقه فشـمل الأرض أو أكثرها ، فان قانون العـالم حينئذ يصبح منتزعا من طبيعة التراحم ، فاما انتسخ به قانون التنازع الطبيعى ، واما كسر من شرته، ويولد المولود يومئذ وتولد معه الأخلاق الانسانية •

والرافعى فى اشراقته تلك يرى أن أهم العوامل فى نمو الأخلاق وسـموها هو « تقرير معنى الدوام لكل أعمال النفس ، حتى مثقال الذرة من الخير والشر ، وضبط ذلك برياضة عملية دائمة مفروضـة على الناس جميعا ــ هـذا هو أساس العقيدة الاسلامية ، والاصلاح للانسانية بغيره يردها الى سبيل قصدها •••

ونقطة مهمة أيضا يتناولها الرافعى ويفلسفها حسب منهجـه فيقـول : « وللنفس وجهان : ما تعلن ، وما تسر ، ولا صدق لاعلانها حتى يصدق ضميرها ، ولاصـلاح لجهرها حتى يصـلح السر فيها ، ولا يكون الانسان الاجتماعى فاضلا بمشهده حتى يكون كذلك بغيبه •

وللعالم كذلك وجهان : حاضره الذى يمر به ، وآتيه الذى يمتد له ، ولا يفلح حاضر منقطع لا يورث ــ بكسر الراء المشددة ــ ما بعده كما ورث ما قبله ، وما حاضر الانسانية الا جزء من عمل الناس فى استمرار فضائلهم باقية نامية ...

وللنظام أيضا وجهان : نظام الرغبة على الطاعة والاطمئنان لها ، ونظام الرغبة على الخشية والنفرة منها ، ولا يستقيم شأن ليس أساسه الطاعة فى النفس ، ولا يستمر نظام عليه خلاف من فكر العامل به .

ومسائل كثيرة يطرقها الرافعى تتصل بالاسلام والانسان والحياة ، يولد بعضها من بعض ، ويربط بينها برباط أفكاره وبنات بيانه ، ويرجع كل فضيلة فى الانسان المسلم الى عيشه الدائم فى كنف نبيه وحبه له ــ ﷺ ــ فليس من محبوب أعظم من محمد ودين محمد ، وتتضح ملامح هذا الحب وقوته وصدقه فى أخذ النفس وتقويمها بمقومات الدين . « .. وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب »(٦٩) . « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم . قل أطيعوا الله والرسول فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين »(٧٠) .

ويؤكد الرافعى معنى الحب فى حكمة جليلة يعجب ألا يتدبرها المسلم ، وهى أن « النبى العظيم يذكر خمس مرات فى الآذان كل يوم ، ينادى باسمه الشريف ملء الجو ، ثم حكمة ذكره فى كل صلاة من الفريضة والسنة والنافلة ، يهمس باسمه الكريم ملء النفس !

وهل الحكمة من ذلك الا الفرض عليهم ألا ينقطعوا من نبيهم

ولا يوما واحدا من التاريخ ، ولا جزءا واحدا من اليوم ، فيمتد الزمن مهما امتد والاسلام كأنه على أوله ، وكأنه فى يومه لا فى دهر بعيد ، والمسلم كأنه مع نبيه بين يديه تبعثه روح الرسالة ، ويسطع فى نفسه اشراق النبوة .. » كهذا الاشراق النبوى الواضح الظهور على سر الرافعى وعلى أنفاسه .

واذ يتلفت دبينا يمنة ويسرة باحثا عن المسلم الذى تتحقق فيه أمانيه ، اذ يتلفت فلا يجد طلبته ، تجده يتحسر ويقول :

« ان كل أرض اسلامية يكاد لا يظهر فيها الا انسانها التاريخى بجهله وخرافاته وما ورث من القدم ، فهنا المسلم الفرعونى ، وفى ناحية المسلم الوثنى ، وفى بلد المسلم المجوسى ، وفى جهة المسلم المعطل ... وما يريد الاسلام الا نفس المسلم الانسانى » .

وفى نداء حان ، ولكنه يحمل الحسرة والألم ، كما يحمل الرجاء والأمل يقول :

« أيها المسلم ! لا تنقطع من نبيك العظيم ، وعش فيه أبدا ، واجعله مثلك الأعلى ، وحين تذكره فى كل وقت فكن كأنك بين يديه ، كن دائما كالمسلم الأول ، كن دائما ابن المعجزة »(٧١) .

وتلك المعجزة التى يريد الرافعى أن يكون المسلم ابنا لها حقا ، هذه المعجزة تحتم على أبنائها العودة القوية الى بداية المعجزة وكيفية نشأتها وجهادها غير الوانى على الرغم من ضخامة ما واجهها من صعاب وعقابيل .

قلنا : ان الرافعى يسترفد فى كتاباته الكتاب والسنة ، وهذا الذى يطبع أساليبه بالطابع العالى والمتميز ، ونحن أمام هذا

تنساق عواطفنا فتحملنا على الاطالة فى نقل النصوص الجميلة ، وكل نصوص الرافعى فى الحق مطبوعة بطابع الجمال ، وفى الحق كذلك أننا كلما أردنا رد القلم عن الاسترسال ، والاكتفاء بما سجل ، أبدى تحيرا ، ورغب فى الاستزادة ، لأنه لا يستطيع أن يحسن المفاضلة ثم الاختيار من بين ما دبجه ذلكم الأديب ، بل يود هذا القلم لو أتى على كل نتاجه فاستفاد منه وأفاد بقدر ما يستطيع .

وحيث ان الأمر هكذا ، أدب مصدره واحد ، وهو فى جملته متناغم متساوق ، فلا ضير أن نأخذ ما نأخذ من موضوع أدب الرافعى دونما ترتيب أو تعليل . ولنكن الآن أمام أديب الفكرة الاسلامية وآراء القيمة فى(٧٢) :

٨ ــ الصورة الثامنة منه

« اجتلاء العيد »

هذا موضوع بل قضية وظفها الرافعى للدين والسياسة والحياة ، وقد جعل المسجد والخطبة من عناصرها ، وقد ركز على المسجد ووظائفه والخطبة وهدفها فى أكثر من موضوع .

ولقد اعتدنا ، كما اعتاد الناس أن يكون العيد من بين المناسبات الدينية الكريمة التى تمر بنا مر الكرام ، وربما كان معنى العيد عند بعضنا أو أكثرنا محصورا فى فرحة ولباس جديد .

أما الرافعى أديب الفكرة الاسلامية والاستنتاجات الهادفة البناءة فان العيد عنده له طعم ومذاق ، وحتى هذا لا يكون فى فهمه كما يفهم الناس ، بل يفهمه على أنه يوم الخروج من الزمن الى زمن وحده ، لا يستمر أكثر من يوم . وهذا اليوم الواحد يجمع فيه

الرافعى من الصفات والخصال الاسلامية قـدرا جميلا ، وهذا الجمال يجعله مجسدا فى الفرد ونفسه ، والفرد والجماعة ، وجميع الناس ، ويخص الأطفال وبراءتهم وأزياءهم بحديث • العيد :

هو يوم « يتكشف فيـه للانسان أن الكل جماله فى الكل » •

وعلى لسان الأطفال أو عن مظاهرهم يكتب الرافعى ما يريده من فلسفة هـذه المناسبات • الأطفال :

« يعرفون كنـه الحقيقـة ، وهى أن العبـرة بروح النعمـة لا بمقدارها » •

« هؤلاء الحكماء الذين يشـبه كل منهم آدم أول مجيئـه الى الحنيا » •

وتطويل الحديث عن الأطفال يشعر أن الرافعى لم يلفته شىء أو يسره كهذا الذى شاهده على الأطفال • لقد تأملهم ، وأطال التأمل :

« فاذا لسان حالهم يقول للكبار : أيتها البهائم ، اخلعى أرسانك ولو يوما •• » •

انهم « أحرار حرية نشاط الكون ينبعث كالفوضى ، ولكن فى أدق النواميس ، يثيرون السخط بالضجيج والحركة ، فيكونون مع الناس على خـلاف ، لأنهم على وفاق مع الطبيعة » •

« وتحتدم بينهم المعـارك ، ولكن لا تتحطم فيها الا اللعب » •

« أما الكبار فيصنعون المدفع الضخم من الحديد للجسـم اللين من العظم ، أيتها البهائم ، اخلعى أرسانك ولو يوما ••• » •

ثم يأسف للكبـار الذين أبعـدتهم آثامهم عن مباهج الأفراح وأسرارها •

« .... ما أبعدنا عن حقيقة الفرح !
تكاد آثامنا ــ والله ــ تجعل لنا فى كل فرحة خجلة ... »

ثم ينظر فى الحياة وفى مظاهر جمالها نظرة الفكر المتأمل ، يصفها بأحلى ما يكون الوصف ، ثم يقول لها :

« أنت شتى ، ولكنك جميعا فى هؤلاء الأطفال يوم العيد .. » .

لقد طرق الرافعى هنا معانى كثيرة من معانى العيد ، وعلى الرغم من كثرة هذه المعانى وجمالها ، فانها لم تحمل أهدافه الكبرى التى بنى من أجلها هذا الموضوع ، أو هكذا نراه .

ولكن ما أن ينهى تصفيف تلك الباقة التى اهتم فيها اهتماما بالأطفال ، ما أن ينهى ذلك حتى يأخذ فى تجلية المعانى والأهداف الأسمى للعيد ، ويتخذ لذلك عنوانا يسميه(٧٣) :

٩ ــ المعنى السياسى للعيد .

وهى الصورة التاسعة التى انتقيناها من وحى القلم ، ولأهمية هذا الموضوع فى حقيقته ، ولعلمه هو بتلك الحقيقة يبدؤه بالتعجب المثير ، فيقول :

« ما أشد حاجتنا نحن المسلمين الى أن نفهم أعيادنا فهما جديدا ، نتلقاها به ، ونأخذها من ناحيته ، فتجىء أياما سعيدة عاملة تنبه فينا أوصافها القوية ، وتجدد نفوسنا بمعانيها ، لا كما تجىء الآن كالحة عاطلة ممسوحة من المعنى ، أكبر عملها تجديد الثياب ، وتحديد الفراغ ، وزيادة ابتسامة على النفاق ... » .

ومن الأمور اللافتة بشدة أن الرافعى يهتم كثيرا بفكرة العمل ، ومن ثم لا يكاد يطرق بابا من أبواب الكتابة الا كان للعمل فيما يكتب

مساحة وتلك نظرة حصيفة ، فاعلة وبناءة ، ومصدرها أيضا الكتاب والسنة ، أما السنة فما أكثر آثارها التى حثت على العمل وحضت عليه وزينته ، وأما الكتاب العزيز فما أكثر آياته أيضا التى قرنت الايمان بالعمل .

ذلك — فيما نرى — منطلق أصيل ينطلق منه الرافعى فى جل ما يكتب أو كله ، واذا ما كان هذا ظاهرا وجليا ، فانه فى موضوعنا هذا أجلى وأظهر . قال :

« فالعيد انما هو المعنى الذى يكون فى اليوم لا اليوم نفسه ، وكما يفهم الناس هذا المعنى يتلقون هذا اليوم ، وكان العيد فى الاسلام هو عيد الفكرة العابدة ، فأصبح عيد الفكرة العابثة ، وكانت عبادة الفكرة جمعها الأمة فى ارادة واحدة على حقيقة عملية ، فأصبح عبث الفكرة جمعها الأمة على تقليد بغير حقيقة ، له مظهر المنفعة وليس له معناها » .

« كان العيد اثبات الأمة وجودها الروحانى فى أجمل معانيه ، فأصبح اثبات الأمة وجودها الحيوانى فى أكثر معانيه ، وكان اليوم استرواح القوة من جدها ، فعاد يوم استراحة الضعف من ذله ، وكان يوم المبدأ ، فرجع يوم المادة » .

ألم نقل : ان العيد قد فقد معانيه السامية التى سن من أجلها ؟ ولعل واقع المسلمين المشاهد لا يحتاج الى مزيد بيان ، أليست قضاياهم المهمة والعالمية دائما فى الذيل ؟ .

لقد مضى على مشاهدات الرافعى وتسجيلها زمن ، ومن خلال كلماته تظهر لنا فاجعة ، فهل نحن اليوم أحسن حالا من الأمس ؟

ومهما يكن من أمر فانا فى أمس الحاجة وأشدها الى مثل هذا الأدب وإشاعته كى يسهم فى تقويم الأخلاق ، وأخذ من يستطيع الى جـادة الطـريق .

وليس من حق أحـد أن يستهين بالأدب ورسالته ، أو أن يعفيه من الالتزام بالحق والكشف عن أسرار الاسلام ، « فان الرافعى لما كتب قصته ، « أيمامتان » افتتن بهـا القـراء ، حتى كان منها أن اهتدى الى الاسلام أسـتاذ مسيحى من أسـاتذة التاريخ فى بلاد الجزائر ، فكتب الى الرافعى رسـالة يعلن فيها اليـه اسـلامه ، ويسأله الوسيلة الى دراسة هذا الدين والتفقه فيـه »(٧٤) ، أرأيت ماذا فعلت الكلمة المسئولة الملتزمة ؟؟

ويمضى الرافعى فى اجتلاء معانى العيـد ، وليس فيها الا اشعار الأمة بقوتهـا واجتماعها ، ووحـدة كلمتها ، ووحـدة دارها .... «...وليس العيد الا تعليم الأمة كيف توجه بقوتها حركة الزمن الى معنى واحـد كلما شاءت ... وبالجملة تنشىء لنفسها أياما تعمل عمل القواد العسكريين فى قيـادة الشعب ، يقوده كل يوم منها الى معنى من معانى النصر » .

ومعان كثيرة وهادفة جميلة يحملها الرافعى فى معنى العيد .

وليس يرضى الرافعى بأن يكون العيد من الموروثات التى لا تقبل التبديل أو التجديد ، ومن ثم ينظر الى الزمن وتغيره ، والى الحياة وكيف أنها كل يوم فى شئون ، وعلى ذلك فالعيد وكل المناسبات خاضع للأمة ولأغراضها ، تصنع فيها ما تشاء ، شريطـة أن يكون الصـنيع خاضعا لثوابت الاسـلام ، منطلقا فى فروعه انطـلاق الأولين فى اجتهادهم ، وفى اخضاع الحياة لاسلامهم ، وليس اخضاع اسلامهم

للحياة ، « فيضيفون الى مثال الأولين أمثلة مما يبدعه نشاط الأمة ، ويحققه خيالها ، وتقتضيه مصالحها » .

واذا فرغ من العيد ومن تقرير المعانى التى يحملها ، والأهداف التى شرع من أجلها ، أخذنا الى مناسبة الجمعة ، وجعلها من الأيام التى تجدد شباب العزائم فى كل أسبوع ، ذاكرا أهم شروطها « الخطيب والمنبر والجامع » ، هو يوم يشعر الأمة معنى القائد الحربى الذى يأتمر المجاهدون فى شتى مجالات الحياة بأمره ، ويجاهدون جهاده .

وهنا يأسى الرافعى ويأسف على المنابر والخطباء وما صار اليه كل من المنبر والخطيب ، « ألا ليت المنابر الاسلامية لا يخطب عليها الا رجال فيهم أرواح المدافع لا رجال فى أيديهم سيوف من خشب » .

وموضوع الجمعة والمنبر ، والخطيب وسيفه ، قد ملك على الرافعى فكره ، وشغل وجدانه ، وهذا شأنه دائما فى مسائل الاسلام ، والعودة بها الى جوهرها وروحها ، ومن أعلم بلبها وقشورها من هذا الأديب ... ؟

شغل الرافعى بهذا فصنع موضوعا اختصه به ، وسماه(٧٥) :

١٠ ــ الأيدى المتوضئة

وهى الصورة العاشرة ، وقد انطلق مشكلا ببيانه صورة ناطقة ، ماثلة بالحركة ، كاشفة عما يجمعه المسجد من أخلاط الناس على اختلاف مشاربهم وأفهامهم ، ومظاهرهم وأسرارهم ، هكذا يرون ، ولكن ليس فيهم واحد يفكر لنفسه ، أو يفكر أنه أسمى ومتميز

عن غيره ، فلقد طبعهم المسجد بطابعه ، وخلقهم بأخلاقه ، وأخذ بهم الى أهدافه ومراده ، فصارت كل الخواطر متوضئة متطهره .

والخاطر المتوضىء المتطهر تفقد عنده كلمة الكبرياء روحها ومعناها ، وكلمة التواضع وخفض الجناح تجد روحها وتحقق معناها ، وصارت النفس المجتمعة حربا على النفس المنفردة . فمن معانى المسجد اذن « صهر الأمة فى الجسد الواحد — الذى اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر — وايقاظ الشعور الدائم وحفزه على فهم معنى : « انما المؤمنون اخوة ... »(٧٦) .

يركز الرافعى فى هذه الصورة على المساواة المطلقة حتى ليشعرك بأن معانى قوله — تعالى — : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم .. »(٧٦) وقوله — ﷺ — : « كلكم لآدم وآدم من تراب ... »(٧٧) يشعرك بأن هذه المعانى لا يمكن أن تكون حقيقة قائمة فى أى جمع أو مجتمع كما هى فى المسجد ، فهو اذن شعار الأمة ، وبدء انطلاقها الى شئون حياتها ، تنطلق وخواطرها متوضئة ، وجوارحها متوضئة ، وهذه الوضاءة لابد أن تنعكس على جميع السلوكيات .

تلك هى حقيقة المسجد فى الاسلام ، أو بعض حقيقته ، وبما أنه على تلك الشاكلة فان الرافعى ينعى كثيرا على ذلك المظهر « الذى لا يجهله أحد من أهل الدين ، يعرفه بعض علماء الدين على وجه آخر ، فتراه فى المسجد يمشى مختالا ، قد تحلى بحليته ، وتكلف لزهوه ، فلبس الجبة تسع اثنين .... وهو بعد كل هذا لو كشف الله تمويهه لانكشف عن تاجر علم بعض شروطه على الفضيلة أن يأكل بها ، فلا يجد دنيا ذاته الا فى المسجد ، فهو نوع من كذب العالم الدينى على دينه » .

وأرى الرافعى هنا لا يتهكم ولا يستهزىء ولا يهاجم ، ولكنه يرشد ، ويود لو نأى أهل العلم بأشخاصهم عن الزهو والتعالى ، ولو تمثلوا سلوك نبيهم — ﷺ — وسلوك من تبعه .

ومما هو مقرر فى هذا الدين وثابت ثبوتا ، التواضع وخفض الجناح ، والشدة على الكفر ، والرحمة للمؤمنين « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم .. »(٧٨) هذه الصفات ملازمة ولاصقة أبدا بالمؤمنين المسلمين ، واذا ما كانت هذه لا تنفك عنهم فى حياتهم الدنيوية عانها فى المسجد ومن الامام أولى وأحرى ، والا فان ذمها وجرمها يتضاعف بقيمة المكان ، وهو هنا « المسجد » .

قلنا : ان الرافعى لا يستهزىء ولا يتهكم ، يوضح ذلك أو يؤكده قوله : « وصعد الخطيب المنبر وفى يده سيفه الخشبى يتوكأ عليه ، فما استقر فى الذروة حتى خيل الى أن الرجل قد دخل فى سر هذه الخشبة ، فهو بيده كالمريض تقيمه عصاه ، وكالهرم يمسكه ما يتوكأ عليه ، ونظرت فاذا هو كذب صريح على الاسلام والمسلمين ، كهيئة سيفه الخشبى فى كذبها على السيوف ومعدنها وأعمالها » .

يريد الرافعى أن يقول : ان سيف الأولين كان أصلب من الحديد ، أما عصاه فقد كان للفتح واخراج الناس من الظلمات الى النور ، وأن الذى كان يمسك بهذا السيف كان أصلب منه وأشد صرامة ، وأن الامساك بالسيف يعنى الاستعداد للجهاد ، وهزه يعنى خوض غمار الحرب فى صحبة العزم على احدى الحسنيين ، النصر أو الاستشهاد ، تلك حقيقته وهذا رمزه ، فالى أى حال صار ؟

لقد صار سيفا خشبيا ، يراه الرافعى « علامة الذلة والضعة ، والتراجع والادبار ... ومسخ التاريخ المنتصر ، والرمز لخضوع الكلمة وصبيانية الأداء » .

قلنا : أن العيد أصبح عادة وتقليدا ، وهو عند الرافعى ما علمته ونقول : ان سيف الخطيب فى الجمعة صار كذلك ، ولكنه عند الرافعى ما علمته أيضا ، فماذا عن خطيب اليوم وخطيب الأمس؟ قال :

« وخطب العالم على الناس ، وكان سيفه الخشبى يخطب خطبة أخرى ، فأما الأولى فهى محفوظة معروفة ، ولا تنتهى حتى ينتهى أثرها ، اذ هى كالقراءة لاقامة الصلاة .

وكانت فى عهدها الأول كالدرس لاقامة شأن من شئون الاجتماع والسياسة ، فبينها وبين حقيقتها الاسلامية مثل ما بين هذا السيف من الخشب وبين حقيقته الأولى » .

ذلك ، وفى تحفة من التهكم والسخرية اللاذعة ، ينسج الخطبة الثانية ، ينقلها عن السيف الخشبى الذى احتل عند المسلمين مكان العضب ، فهذا آنف منهم ومن أيديهم المهترة التى لا تقوى على حمل الصوارم من الحديد .

لقد ترك السيف يتكلم ، وقد كان فى كلامه أبلغ وأفصح من الخطيب الذى يتوكأ عليه ، ثم يختم السيف خطبته قائلا :

أيها المسلمون : لن تفلحوا وهذا خطيبكم المتكلم فيكم ، الا اذا أفلحتم وأنا سيفكم المدافع عنكم . أيها المسلمون ، غيروه وغيرونى » .

ألا انها فكرة بسيطة ، يتنبه لها احساس الأديب المسلم ، ويصنع من كل فكرة موضوعا ، وفى ثنايا الموضوع بيث ما يحلو له من حلو الأهداف وجلالها .

ولا ينتهى درس المسجد عند الرافعى الى هنا ، وانما يأخذنا

في حديث طويل ، حديث ما بعد الصلاة ، درس انطق فيه أكثر من متحدث وأدار الحديث على ألسنتهم حول شئون الساعة ، وحول شيء من حاضر المسلمين وقضاياهم .

وكأني بأديبنا الرافعي لا يشبع عواطفه ووجداناته تناول الهش من الموضوعات ، ولا ما يبعد عن أحوال المسلمين وهمومهم ، ولا يقبل حجة من يرى أكثر الناس من رواد المساجد من العامة ، وهؤلاء لا يكادون يفهمون الا القليل والذي يقترب من مستوى أفهامهم . أراه لا يرضى بذلك ، فان رجلا كان يجاوره في مجلس المسجد قال لرجل كان معه ، وكل منهما فلاح قروي لا يدل مظهره على أنه من المثقفين ولا حتى من أوساط الناس ، قال :

« ان هذا الخطيب ، خطيب المسجد قد غشنا (وفضحه من تكلم بعده) فما ينبغي أن تكون خطبة المسلمين الا في أخص أحوال المسلمين » .

وكأني بأديبنا يريد أن يقول : « ان الفضل بيد الله »(٧٩) ، وان الله — تعالى — « يؤتي الحكمة من يشاء »(٨٠) ، ويزيد أن يقول : « رب حامل فقه الى من هو أفقه منه » ، وأن الكلمة الاسلامية مهما سمت في أساليبها ، وسمقت في معانيها فان فيها ما يفهم ويقوم بمقدار ، ولا أدل على ذلك من كتاب الله العزيز ، هل وقف أمامه انسان دون أن يستفيد ؟

لقد كان المسجد — كعادته — غاصا بالشباب والشيوخ ، وحين يكلمنا على ألسنة الشباب يرينا فيهم الحمية الاسلامية ، والاقتحام غير المتردد ، وأن الأمة انما تنهض بجهادهم .

واذا تكلم على ألسنة الشيوخ أرانا حكمتهم وحنكتهم ، يرمز بذلك الى قيم قوية مقودة بحكمة سوية ، ويرمز بذلك الى أمة يرحم فيها الكبير الصغير ويوجهه ، ويوقر فيها الصغير الكبير ويطيعه فى الحق ويعينه • على أن خطيب المسجد الذى عاب عليه رص الخطبة رصا نكاد نراه يلتمس له عذرا ، لأنه معلم وله طريق مرسوم ، قد أكرهته السياسة عليه ، ولقنته « أن يخلع اسلاميته الواسعة قبل صعوده المنبر ، وألا يصعد الا فى اسلاميته الضيقة المحدودة بحدود الوعظ ، هو مع ذلك نصف وعظ ، فالخطبة فى الحقيقة نصف خطبة ، أو كأنها أثر خطبة معها أثر سيف »(٨١) •

ويبدع الرافعى حوارا يرتب عليه قضايا ، عن الملتحين وغير الملتحين ، وصناديق الصدقة وصناديق الأضرحة ، ثم يصل بنا الى خطب الشبان الذين كانوا فى المسجد فأرانا فى كلامهم ضعفا فى المعانى وقوة فى الأصوات « فهم يصرخون كما يصرخ المستغيث فى صيحات هاربة بين السماء والأرض » •

وينطق الرافعى ثلاثة من الشيوخ الفضلاء ، يقول أحدهم : « لا حول ولا قوة الا بالله ! جاء فى الخبر : تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم » والله ما تعس المسلمون الا منذ تعبدوا لهذين حرصا وشحا ، « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون »(٨٢) ، ولو تعارفت أموال المسلمين فى الحوادث لما أنكرتهم الحوادث •

ثم يورد الشيوخ أو أحدهم أثرا يفيد أن الأمة فى أول الزمان يتعلم صغارها من كبارها ، وفى آخره يتعلم كبارها من صغارها ، ثم يتأول ذلك بأن الأمة قد ابتليت فى آخر زمانها بهؤلاء الشبان الذين يريدون نقل الكبار الى صبيانية جديدة •

وللرافعى هدف من ذلك العرض ، قـد عرضه على لسان الشيخ يقـول :

« ليس معنى الأثر ما فهمت ، بل تأويله أن آخـر الزمان سيكون لهـذه الأمة زمن جهـاد واقتحام ، وعزيمة ومغالبة على اسـتقلال الحياة ، فلا يصلح لوقاية الأمة الا شبابها المتعلم القوى الجرىء ، كما نرى فى أيامنـا هـذه ، فينزلون من الكبـار تلك المنزلة ، اذ تكون الحماسة متممة لقوة العلم ، وفى الحديث : « أمتى كالمطر : لا يدرى أوله خير أم آخـره » .

ويهدف الرافعى من وراء هـذا التأويل الفاهم الواعى الى تبيان ما ابتليت به الأمة من أناس يتفيهقون ولا يدرون ما يقولون ، وكيف أنهم بغوغائيتهم يحولون دون الافهام والفهم السليم .

ثم يتحدث عن صندون الجهاد وموقف بعض الناس منـه ، وعن موقف الشيوخ على وجه أخص ، وكيف أنهم كانوا أقصر يدا من عامة الناس ..... ، لهـذا قال رسول الله ـ ﷺ ـ : جاهل سخى أحب الى الله من عالم بخيل » .

الخـــاتمة

ثم أما بعـــد :

فلقد استجاب الله دعوة الشيخ الامام محـمد عبده ، وصـنع الرافعى على قدرها ، قال « .... ، وأسال الله أن يجعل للحـق من لسانك سيفا يمحق الباطل ، وأن يقيمك فى الأواخر مقام حسان فى الأوائل »(٨٣) .

وصدقت فيـه تقريظة العقاد التى يقول فيها : « انه ليتفق لهذا الكاتب من أساليب البيان ما لا يتفق مثله لكاتب من كتاب العربية فى حـدر أيامها »(٨٤) .

هـذا اللسان الحق المنترم ، وذلك البيان الفتى المقتدى بفصاحة الأوائل ، قـد أوقف نفسه على معالجة القضـايا الاسلامية عـلى اختلافها وتنوعها ، وطوع كل شىء فى التراث والحياة لخدمة هـذه القضايا مع الحرص على أن يكون كل ذلك فى ثيـاب البيـان والأدب الاسلامى ، خاصم فى هـذا وصادق فيـه ، وانتصر للفضيلة حيثما كان دارها .

وحقا لم نرد الاستقصاء ، ولم نستطعه ، لأن هذا وذاك له مكانه الذى يتسع له ، ولتكن تلك النماذج التى عرضنا لها ــ على قلتها ــ بمثابة الضوء الذى يكشف للسارى بعض الطريق .

« وعـلى اللـه قصـد السبيل »

مراجـــع البحث وهوامشه

١ ــ مجلة الأدب الاسلامى ــ السنة الثانية ، العـــدد الخامس ــ ظاهرة الأدب المكشوف د/ محـــمد رجب البيومى ص ٢٥ •

٢ ــ انظر معجم المصطلحات ــ مادة « ثقافة » د/ مجدى وهبه ، كامل المهندس ــ بيروت ١٩٨٤م •

٣ ــ الأخلاق • أحمد أمين ص ٢٣ ط دار الكتب ١٣٥٠/١٩٣١ •

٤ ــ عقائد المفكرين فى القـــرن العشرين • عباس العقـــاد ص ٧ ط المعـــارف ١٩٨٤ •

٥ ــ انظر ــ أصـــول النقـــد الأدبى د/ أحمـــد الشايب ص ٧٦ وما بعدها ط النهضة المصرية ١٣٧٣/١٩٥٣ •

٦ ــ انظر ــ تاريخ آداب العرب • مصطفى صادق الرافعى ٢١/١ • ط مطبعة الأخبار ١٣٢٩/١٩١١ •

٧ ــ مجلة الأدب الاسلامى د/ رجب البيومى ص ٢٥ •

٨ ــ آل عمران آية ١٩ •

٩ ــ تاريخ آداب العرب ــ الرافعى ــ ٢١/١ •

١٠ ــ مدخـــل الى الأدب الاســـلامى د/ نجيب الكيـــلانى ص ٧٦ ط الدوحة ــ قطـــر ١٤٠٧هـ •

١١ ــ انظر حيوان الجاحظ ورسائله والبخـــلاء ، وأمراء البيان لكرد على ط أولى جـ١ ، وعيون الأخبـــار لابن قتيبة ص ١٢ ط دار الكتب ــ أولى • والنثر الفنى د/ زكى مبارك •

١٢ ــ انظر ــ أهداف التغريب فى العالم الاسلامى ــ الأستاذ أنور الجذدى ط روز اليوسف •

١٣ ــ انظر النقد الأدبى الحديث د/ محمد غنيمى هلال ط الشعب سنة ١٩٦٤ رطبعات أخرى ، وانظر ــ الأدب ومذاهبه د/محمد مندور ط نهضة مصر • بدون تاريخ •

وانظر ــ دراسات فى الأدب العربى العربى الحديث ومدارسه د/ محمد عبد المنعم خفاجى ط المحمدية أولى وانظر ــ مدخل الى الأدب الاسلامى ص ١٤٢ : ١٤٧ ــ وانظر ــ المذاهب النقدية د/ ماهر حسن ط الحديثة ١٩٦٢ •

١٤ ــ الملك آية ١٤ •

١٥ ــ مدخل الى الأدب الاسلامى ص ٣٣ وما بعدها •

١٦ ــ يونس آية ١٠١ •

١٧ ــ فى ظلال القرآن ــ الأستاذ سيد قطب ــ تفسير الآية ١٠١ من سورة يونس ٣/١٨٢٢ ط الشروق ١٤٠٢ ــ ١٩٨٢ •

١٨ ــ انظر ــ حقيقة الانسان د/ عيسى عبده ابراهيم ، أ• أحمد اسماعيل يحيى جـ١ ، ٢ ، ٣ ط المعارف ١٩٨١ •

١٩ ــ الأحزاب آية ٧٢ •

٢٠ ــ محمد اقبال • سيرته وفلسفته د/ عبد الوهاب عزام ص ٢٥٦ : ٢٥٨ ط الدار العلمية بيروت ١٣٩٢/١٩٧٢ •

* معرض الأدب والتاريخ الاسلامى ــ محمد عبد الغنى حسن ص ١٦٧ ط النموذجية ١٩٤٧ ــ فصل ممتع عن الطبيعة •

٢١ ـ ديوان شجرة القمر ـ قصيدة « خمس أغان للألم » نازك الملائكة ص ٦١ ، ٦٢ ط دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٦٨ .
وانظر ـ الأدب الاسلامى ضرورة د/ أحمد محمد على ـ عبده زايد ـ ص ٥٠ ، ٥١ ط أولى ١٤١١ ـ ٢٩٩١

٢٢ ـ ديوان افريقيا ـ قصيدة « اعترافات » ـ محمد الفيتورى ط بيروت ١٩٦٧ وانظر المرجع السابق والصفحة

٢٣ ـ أنشودة المطر ، قصيدة لمالغرب العربى ـ بدر شاكر السياب ص ٧٦ وانظر ـ الأدب الاسلامى ضرورة ص ٥٣ .

٢٤ ـ النقد الأدبى ـ سيد قطب ص ١٥ وما بعدها ط بيروت بدون تاريخ .

٢٥ ـ فى هامش ص ١٧ أن الترجمة للطفى شلش فى مجموعة سماها « رعاة الحب » واسمها الذى وضعه طاغور « البستانى » .
والحباحب : ذباب يطير بالليل يضىء ذنبه .

٢٦ ـ المرجع ص ١٨

٢٧ ـ انظر ص ١٥٨ من هذا البحث .

٢٨ ـ حديث القمر ـ مصطفى صادق الرافعى ص ١٥ ط دار الكتاب العربى ـ ثانية ـ بيروت ١٤٠٢ ـ ١٩٨٢ .

٢٩ ـ وحى القلم ـ مصطفى صادق الرافعى ـ تصدير بقلم محمد سعيد العريان ١١ ، ١٣ ط المعارف ـ ثانية ١٩٨٢ .

٣٠ ـ وحى القلم ـ صفحة العنوان ـ تقريظ لسعد باشا زغلول ، والنص فى ص التقريظ لكتاب اعجاز القرآن ط المقتطف ١٣٤٦ ـ ١٩٢٨ .

٣١ ــ حيــاة الرفعى ــ محــمد سعيد العريان • وانظر ــ الجانب الاسلامى فى أدب الرافعى ــ عبد الستار السطوحى ص ٢٦ ط دار النصر ١٩٩٠ •

٣٢ ــ يوسف آية ٣٣ ، ٣٤ •

٣٣ ــ عرض الشيخ سيد قطب فى تفسيره « فى ظلال القرآن » جملة الأحاديث والآراء والتأويلات نقلا عن مصادرها ، وكلها مفيد على الرغم من اشتمالها على الراجح والمرجوح • انظر تفسير الآية ٣٢ من سورة « النجم » •

٣٤ ــ الحجرات ــ آية ١٣ •

٣٥ ــ انظر الزمخشرى فى تفسيره للآية ، وقد أثرنا معناه اللغــوى على معنى الرافعى لقوله : « فى رفق ، ولا اخال حـــالة المرأة عندئذ الا فى هياج عصبى ، وتوتر موجع • (١ر١٠٤ وحى القــلم) •

٣٦ ــ من هنا نص كلامهما كما رواه صاحب الأغانى ــ الى قوله : يوم القيامة ، وهو كل القصة فى كتابه ــ ١/١١٢ وحى القلم •

٣٧ ــ الزخــرف آية ٦٧ •

٣٨ ــ الاسراء ــ آية ٤٤ •

٣٩ ــ وحى القلم ١/٣١٤ •

٤٠ ــ يعنى كتلا على كتل ، والزيم المتفرق من اللحم •

٤١ ــ المدثــر ــ آية ٣٨ •

٤٢ ــ وحى القلم ١/١٨ •

٤٣ ــ بلدة بفلسطين ، وبلبيس فى محافظة الشرقية ، مدينة معروفة •

٤٤ ــ حديث الجقمر ــ الرافعى ص ٧ •

٤٥ ــ أسرار البلاغة ــ عبد القاهر الجرجانى ــ تـ الشيخ محمود محمد شاكر ص ٥٥ وما بعدها ط المدنى ١٤١٢ ــ ١٩٩١

٤٦ ــ حياة الرافعى ــ محمد سعيد العريان ط ثالثة ــ التجارية ١٣٧٥ ــ ١٩٥٥ •

٤٧ ــ وحى القلم ١/١٨ ، ١٩ ــ بتصرف •

٤٨ ــ فى هامش ص ٢٠ من وحى القلم ــ هى مارية القبطية التى أهداها المقوقس الى النبى ــ ﷺ ــ وكانت من (أنصنا) بالوجه القبلى •

٤٩ ــ انظر ص ١٦٨ وما بعدها من هذا البحث •

٥٠ ــ وحى القلم ١/١١٣ •

٥١ ــ حياة الرافعى ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ •

٥٢ ــ القرم ــ بالتحريك ــ اشتداد الشهوة الى اللحم • فهى صورة بيانية جميلة •

٥٣ ــ التارة : المدة والحين •

٥٤ ــ مرجع الضمائر الى الدنيا •

٥٥ ــ قال : الدرهم خمسة قروش •

٥٦ ــ السويق ــ بفتح السين المشددة وكسر الواو ــ طعام يتخذ من مرقوق الحنطة • والشعير ، سمى بذلك لانسياقه فى الحلق ، جمعه أسوقة •

٥٧ ــ التبان : ما يسمى اليوم (المايوه) أو لباس البحر • ذكره الجاحظ وقال : هو سروال قصير يلبسه الملاحون • وحى القلم ١/١٢٣ ــ هامش •

٥٨ ــ التــوبة ــ آية ١٢٤ ٧٠

٥٩ ــ التــوبة ــ آية ١٢٥ .

٦٠ ــ الرمقة ــ بضم الراء المشددة وسكون الميم : الرماق ــ والرماق بفتح الراء المشددة وكسرها : القليل من العيش يمسك الرمق ــ والرمق ــ بفتح الراء المشددة وفتح الميم ــ بقية الحياة .

٦١ ــ ابراهيم ــ آية ٢١ .

٦٢ ــ تمطر الطير : أسرع فى هويه ، والنمنمة : الزخرفة . والتحبير : التزيين والتنميق .

٦٣ ــ وحى القــلم ١/١٣٣ .

٦٤ ــ حيــاة الرافعى . ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ ــ وانظر . وحى القــلم ١/٩١ ، ١/١١٣ ، ١/١٢٤ ، ١/١٣٣ ، ١/١٤٣ ، ١/١٥١ ، ١/٢٠٠ ، ١/٢٤٦ وعند هــذا انظر ص ٩٣ من حياة الرافعى ، وانظر وحى القلم ٣/٣٩٣ .

٦٥ ــ وحى القلم ٢/٥ ، وانظر الجانب الاسلامى فى أدب الرافعى ــ عبد الستار السطوحى ص ٢٩ ط دار النصر ١٩٩٠ .

٦٦ ــ البقرة ــ آية ٣٠ .

٦٧ ــ حياة الرافعى ــ ص ٨ من الفاتحة ــ محمود محمد شاكر .

٦٨ ــ الجاثيــة ــ آية ١٣ .

٦٩ ــ الحشــر ــ آية ٧ .

٧٠ ــ آل عمران آية ٣١ ، ٣٢ .

٧٢ ــ وحى القــلم ٢/١١ .

** التفسير الكبير ــ الفخر الرازى ٦/١٩٤ ط دار الفكر ــ بيروت ــ بدون تاريخ ، روح المعانى ــ الألوسى ٧/٩٧ ط احيــاء التراث العــربى .

انظرهما فى تفسيرهما للآية (١٥) من سورة المــائدة ــ على خلاف بينهما .

٧٢ ــ وحى القــلم ــ ١/٢٩ .

٧٣ ــ وحى القــلم ــ ١/٣٤ .

٧٤ ــ حيــاة الرافعى ص ٢٨٠ ، وانظر ص ٢٠٢ من هــذا البحث .

٧٥ ــ وحى القــلم ــ ٢/٢٤٤ .

٧٦ ــ الحجرات ــ آية ١٠ ، ١٣ .

٧٧ ــ البيان والتبيين ــ الجاحظ ٢/٣٣ ت الشــيخ عبد الســلام هارون ط الدجوى ــ الرابعة ١٣٩٥ ــ ١٩٧٥ .

٧٨ ــ الفتــح ــ آية ٢٩ .

٧٩ ــ آل عمران ــ آية ٧٣ .

٨٠ ــ البقرة ــ آية ٢٦٩ .

٨١ ــ وحى القــلم ــ ٢/٢٤٧.

٨٢ ــ الحشر ــ آية ٩ .

٨٣ ــ وحى القــلم ــ ١/٧ ، حياة الرافعى ص ٥١ .

٨٤ ــ الجانب الاســلامى فى أدب الرافعى ص ١٩ .